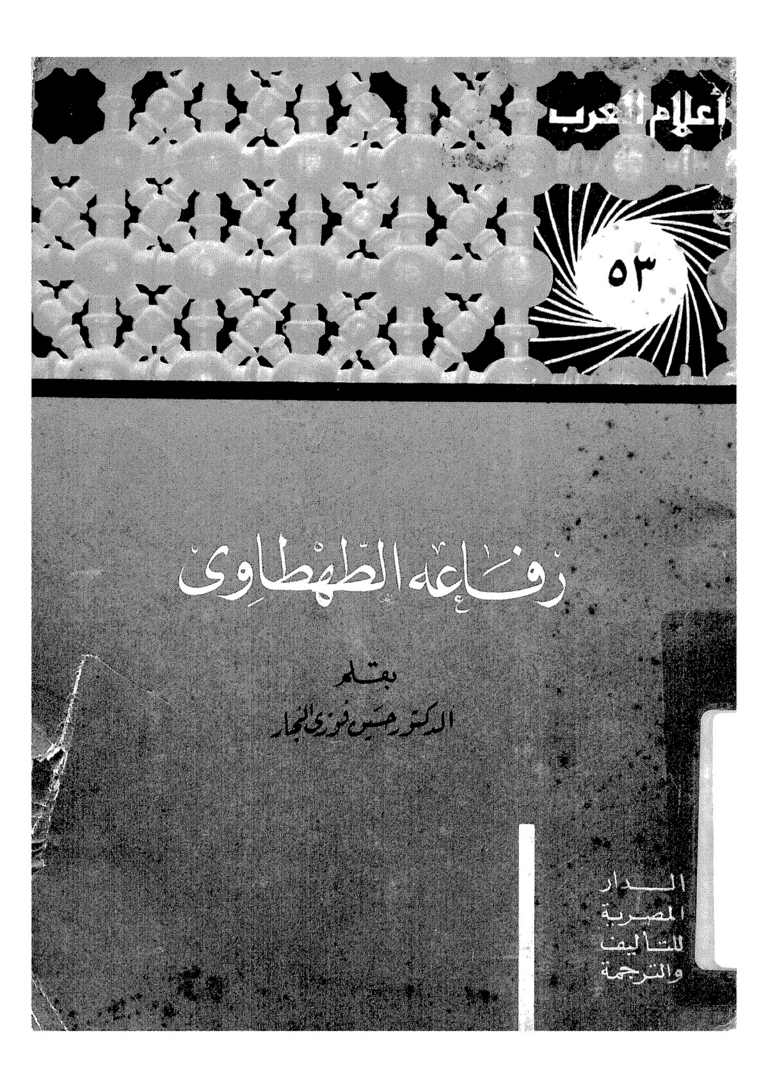


أعلام العرب
٥٣
رفاعة الطهطاوى
بقلم
الدكتور حسين فوزي النجار
الدار المصرية للتأليف والترجمة

أعلام العرب
٥٣

رفاعة الطهطاوى

رائد فكر وامام نهضة

تاليف
الدكتور حسين فوزى النجار

الدار المصرية للتأليف والترجمة

توزيع

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى - الفجالة - القاهرة

تليفون : ٩٠٨٩٢٠ ــ ٩٠٥١٤٧

تقديم

من الناس من تمضى به الحياة وانية غير حفية فاذا مضى عرف الناس قدره ولهجوا بذكره ، ومن الناس من يعظم فى الحياة جاهه ويشيع ذكره فاذا مضى غفل عنه التاريخ ونسيه الناس ، ومن الناس من يذكر بالفضل وينبه بالمثل الصالح ويؤثر بالحمد وان لم يحظ بجاه الحياة وسلطان الحكم فاذا مضى عرف فضله وخلد ذكره ، وكان رفاعة رافع الطهطاوى من هذا القبيل ، عرفه الناس معلما وكاتبا وشاعرا وناثرا وصحفيا وأديبا ومؤرخا يصول فى كل ميدان من ميادين الفكر ، وان لم يعرفوا فيه صاحب جاه أو سلطان ، فعلى كثرة ما تقلب فى مناصب الدولة لم يل منصبا فيه جاه أو سلطان ولم يظفر بما ظفر به دونه من ألقاب الجاه والسلطان ، ولم ينل من الألقاب الا لقب البكوية القرين برتبة الأميرالاى الذى ارتقى اليها بحكم تدرجه فى وظائف الحكومة .

وحين مضى الطهطاوى بعد حياة غنية خصبة بالفكر والانتاج ، وطالع الناس مظاهر التقدم التى دعا اليها من قبل ، عرفوا ما كان له من فضل بعثها والتنبيه اليها فأقبلوا يستجلون آثاره ويشيدون بذكره . وغدت سيرته خير ملهم للشبيبة فى مصر ، بما حوت من آيات الجد والمثابرة والعزم والاصرار ، فقد

بنى الطهطاوى حياته بيديه ، ذهب الى باريس اماما وفقيهـا للأفندية المبعوثين ، فتحول دارسا يتعـلم ويبحث ويستجلى ويتأمل ، وعرف طريقه منذ البداية وحدد أسـلوبه وغايته ، فواءم بين فكره وتقاليد عصره ، ونزعه الى التجديد وجمود قومه ، وميله الى الحرية ، واستبداد حكامه ، وشغفه بالديمقراطية والحكم الدستورى ، والحكم المطلق فى أيامه ، ومضت به الأيام وهو يعلم ويرشد ويوجه دون أن يثير ضغنا ، أو يحمل عليه من يخشى مغبة أفكاره ، ودعوته الى التقدم والارتقاء ، وعاش حياة سهلة رخية الا من كد العمـل ومشـقة البحث والتعليم ، وان لم يغد من أصحاب الحكم والجاه والسلطان فقد ظل بين قومه مرموقا يشهد له الجميع بالفضل والعلم وصان التاريخ فضله وعلمه .

واذا أردنا نعتا له ، فلن نجد له أصدق مما نعته به الشيخ السادات حين قال له فى أحد مجالسه : «اذهب فأنت أبو العزم». وكان من عادة الشيخ أن يكنى الناس بما يراه منطبقا عليهم ، فهذا أبو الأنوار ، وهذا أبو الوفاء ، وهذا أبو البركات ، وهذا أبو الخير ، وغير ذلك من الكنى التى تصدق على من يعنيه .

وكان الطهطاوى حقا صاحب عزم وعزيمة ومناط عزمه فى جده ومثابرته ودأبه ، ولعله فى جده ومثابرته ودأبه أقدر منه فى شطارته ، فقد ظفر منها فى حياته وبعد مماته بما لم يظفر به ذكاؤه فى حياته ، فمما يبدو أن الرجل على ما وهب من قدرة على الدرس ، وذكاء علمى ، كان يعوزه ذكاء من يعاشر السلطان

أو يتصل بالحكم ، وهو ضرب من الذكاء لا يألفه العلماء ، ولعل وقته كان أثمن من أن يضيعه فى توطيد أواصر الود مع من بيدهم الأمر ، فقد شغل العلم والدرس كل وقته فلم يكن لديه منه ما يفرغ فيه الى الناس ، وان لم يحل بينه وبين ما يقتضيه الواجب من مجاملات اجتماعية أو يقعد به عن اعلان ولائه لأصحاب الولاء ، أو لعله كان من الأنفة ما يحول بينه وبين الطلب والرجاء ، فحين بعث به الوالى الى السودان ، لم يرد أن يتشفع بأحد ــ على كثرة ما عرف من أصحاب الجاه والنفوذ وعلى شهرته لديهم ــ فلما فكر فى أن يتشفع « بحسن باشا كتخدا مصر » رجاء « نشله ــ كما يقول ــ من أوحال تلك الأحوال » نظم قصيدة برسمه ، يقول : انه « لم يتيسر ارسالها » ، وان لم يفصح عن علة ذلك ، وان كنا نستطيع أن نقول : ان أنفته هى التى حالت بينه وبين ارسالها ، وان لم تحل بينه وبين نشرها وذكر سببها بعد ذلك ، فلعل الأنفة من الطلب أو خوف الاهمال ، لم تكن أنفة من التوجه لصاحب الجاه والنفوذ .

هذه الأنفة قد يفسرها الناس على أنها قصور فى الذكاء بمعنى الشطارة ، وكان الطهطاوى لا ينقصه الذكاء الاجتماعى أو غيره من ضروب الذكاء ، وان كانت تنقصه الشطارة ، ولعله يستنكفها ويجفوها .

وعلى أية حال فقد حمله ذكاؤه وجده الى ما يحب ويرضى من الفضل وخلود الأثر ، وقعدت به جفوته للشطارة عن الحظوة

عند أصحاب الجاه والنفوذ وعند السلطان ، وما تغدقه الحظوة على أصحابها من ألقاب الجاه ومناصب النفوذ ، فلم ينل الباشوية ولم يل الوزارة ، ولعله ان حفى بالشطارة والزلفى ما كان ينالهما فقد كانت دماؤه خلوا من الجركسية والمملوكية .

ولكنه مضى فى الخالدين وغفل الزمن عن أصحاب الباشوية والوزارة .

وقد يعنينا من هذا الجانب فى سيرة الطهطاوى ما كان من تأثيره على حياته كانسان وان كان لا يصور لنا تفرده وخلوده مما يقترن دائما « بالأثر التاريخى » الذى يتركه صاحب السيرة على صفحة الحياة ، ويجذب التاريخ اليه على الدوام .

فكلما امتد هذا الأثر التاريخى على صفحة الحياة كلما امتدت سيرة صاحبه على الزمن ، ولا نجد أثرا لانسان امتد على صفحة الحياة فى مصر الحديثة كما امتد أثر الطهطاوى ، وسيبقى هذا الأثر خالدا ما بقيت نهضة مصر قائمة تفرع وتأخذ سبيلها نحو الارتقاء والنهوض والتقدم .

ويتصل هذا الأثر التاريخى — ككل أثر تاريخى للبطل أو العظيم فى التاريخ — بالفكرة التى استقامت عليها حياته ، فكل عمل لا بد وأن تقف وراءه فكرة تحفزه ، وتدفعه للبروز ، وقد تجلت معالم الفكرة فى ذهن الطهطاوى منذ البداية فاتجه كبنى قرابته الى الأزهر ليكون شيخا من شيوخه عله يتصدر حلقاته فى يوم من الأيام ويبدو أنه قد أعد نفسه لهذا العمل ، فكان يقيم حلقات للدرس فى المسجد الذى يؤمه بطهطا حين

يؤوب اليها فى شهر رمضان حيث تتعطل الدراسة فى الأزهر أو خلال عطلة الصيف ، فالفكرة فى أن يكون معلما قد نبتت فى دهنه أو أعد نفسه لها منذ البداية كما كان أخواله .

ولكن الفكرة تتطور وتأخذ جدتها لتثمر على يد الشيخ حسن الطويل ، فقد رأى فيه لبنة صالحة لتجـديد الدراسات الأزهرية على ما يحب ويهوى لها ، حين وجده يقرض الشعر ويهوى الأدب ويقبل على دراسة التاريخ والجغرافية ، ولاندرى أكان يستقيم على ما يريد العطـار لو بقى فى الأزهر واتصلت حياته به ؟ فقد انصرف الطهطاوى عن الأزهر الى عمل أكثر لينا فى الجيش يكفل من حاجات معيشته ما لا يكفله التدريس فى الأزهر . وتغيم الفكرة وراء مطالب العيش .

ولكنها تستقيم على هدى وبصيرة عندما تواتيها الفرصة السانحة ، ويجد المعلم ما يستحق أن ينقله الى قومه ، فقبل أن يذهب الى باريس نراه وشيخه الطويل يرغبان فى أن يكتب عن سفرته تلك ، عل الناس يرون فيها ما ينفعهم أو يتعلمون منها شيئا .

وتتحول الفكرة الى عمل حين يرى بعد ما بين الحضارة والتقدم فى بلده وهذا البلد البعيد ، وحين يدرك علة التأخر فى بلده والتقدم فى هذا البلد النازح الغريب ، فيهب نفســه لتعليم بلده وترشيده وتجديد وجه الحياة على سطحه ، وتنبعث فيه روح المعلم التى وارتها مطالب الحياة وكفالة العيش . ويعد نفسه لهذا العمل الجليل ، فيقبل على الدرس والتحصيل اقبالا

لا هوادة فيه ، ويجيد الفرنســية كتابة وقراءة دون أن يعنى بسلامة النطق ، وغدا أمام البعثة أنجب المبعوثين ، فقد عرف أن قومه فى حاجة الى هذا الجديد الذى يميز الغرب عليهم ، وحتى يعرفوا هذا الجديد لا بد وأن يترجمه الى لغتهم ، فان الترجمة هىأولى درجات البعث والاحياء ، قامت عليها النهضة الأوربية ، وقامت عليها كل نهضة قبلها فقد أقبل العرب فى فجر نهضتهم على علوم الفــرس واليونان والهنــد يترجمونها الى لغتهم ويقتبسون من أنظمتها فى ادارة دولتهم .

ويتبنى حركة الترجمة بعد عودته وتصبح مدرسة الألسن موئل البعث الجديد ، ويتحول أبناؤها الى كل جديد من فنون الغرب وعلومه ينقلونه الى طلاب المدارس والى الناس عامة ، الا أن المدارس ــ وقد قامت على النظام الغربى الحديث ــ هى التى استوعبت جل جهود المترجمين .

وأصبح الرجل الذى هيأ نفسه للترجمة ونقل علوم الغرب الى لغة قومه معلما ، يعلم الطلاب فنون الترجمة ويمرنهم عليها ويراجع ما يترجمون ، ومرشدا يوجه قومه الى ضروب النهضة والتقدم ، ورائدا لحركة فكرية تقوم على الاحياء والتجديد ، فكان هذا الأثر التاريخى الذى خلده وخلد به على ما تجرى به سيرته فى هذا الكتاب .

المعادى　　　　　　　　**دكتور حسين فوزى النجار**

مقدمة

حبا كل نور ولم تبق غير ذبالة خافتة تنبعث من جنبات الأزهر لا تكاد تضيء أو يمتد بصيصها الى خارج رحباته ، فحين جاء أحمد باشا المعروف بكور وزير — كما يقص الجبرتى عن حوادث عام ١١٦٢ هـ (١٧٤٩ م) — واليا على مصر ، وكان « من أرباب الفضائل وله رغبة فى العلوم الرياضية — كما يقول — وقابله صدور العلماء فى ذلك الوقت وهم الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ سالم النفراوى ، والشيخ سليمان المنصورى ، فتكلم معهم وناقشهم وباحثهم ، ثم تكلم معهم فى الرياضيات فأحجموا وقالوا لا نعرف هذه العلوم فتعجب وسكت » . ويمضى الجبرتى فيقول ان الشيخ الشبراوى دخل على الباشا فى يوم جمعة يحادثه كعادته . فقال له الباشا : « المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت فى غاية الشوق الى المجيء اليها ، فلما جئتها وجدتها كما قيل : تسمع بالمعيدى خير من أن تراه ، فقال له الشيخ هى يا مولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف فقال : وأين هى وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن مطلوبى من العلوم فلم أجد عندكم منها شيئا ، وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ونبذتم المقاصد ، فقال له : نحن لسنا أعظم

علمائها وانما نحن المتصدرون لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية الا بقدر الحاجة الموصلة الى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب والغبار ، فقال له : وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية بل هو من شروط صحة العبـادة كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة وأوقات الصوم والأهلة وغير ذلك ، فقال : نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية اذا قام به البعض سـقط عن الباقين ، وهذه العلوم تحتـاج الى لوازم وشروط وآلات وصناعات وأمور دوقية كرقة الطبيعة وحسن الوضع والخط والرسم والتشكيل والأمور العطاردية ، وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء وأخلاط مجتمعـة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك ، فقال : وأين البعض ، فقال : موجودون فى بيوتهم يسعى اليهم ، ثم أخبره عن الشيخ الوالد (يقصد أباه الشيخ حسن الجبرتى) وعرفه عنـه وأطنب فيه ذكره ، فقال ألتمس منكم ارساله عندى ، فقال يا مولانا انه عظيم القدر وليس هو تحت أمرى ، فقال : وكيف الطريق الى حضوره ؟ قال : تكتبون له ارسالية مع بعض خواصكم فلا يسعه الامتناع ، ففعل ذلك ، وطلع اليه ولبى دعوته وسر برؤياه واغتبط به كثيرا وكان يتردد عليه يومين فى الجمعة وهما السبت والأربعاء ، وأدرك منه مأموله ، وواصله بالبر والاكرام الزائد الخ » .

ويختم الجبرتى فصته بقوله : « وكان المرحوم « الشيخ

عبد الله الشبراوى » كلما تلاقى مع المرحوم الوالد يقول له : سترك الله كما سترتنا عند هذا الباشا فانه لولا وجودك كنا جميعا عنده حمير » [1] .

ولكن لم يكن هناك كثير من أمثال الشيخ حسن الجبرتى ، وما كانوا حتى ان وجدوا الا الخفقة الأخيرة من الذبالة التى بقيت تضىء من علوم العرب ، ولم تكن فى ذلك الوقت شيئا الى جانب ما حقق الغرب من تقدم فى ميدان العلوم .

كانت تلك هى الصفحة الأخيرة من صفحات الحضارة العربية الباهرة التى أضاءت ظلام العصور الوسطى ، وكانت صفحة باهتة شوهاء . فقد أخذت غاشية الظلام تضرب أطنابها على معالم الحضارة فى القاهرة وبغداد ودمشق ، وكانت السيطرة العثمانية على البلاد العربية قد مضى عليها نيفا وقرنين من الزمان .

وقد حمل العثمانيون بيارق الاسلام لتخفق فوق تلاع جديدة لم تخفق عليها من قبل وامتد ملك آل عثمان فطوى الغرب الى جبال الأطلس وأسوار فينا ، ولو قدر لهم ان ينسابوا الى أوربا الغربية لكان للاسلام شأن آخر فيها ، ولكن موجتهم انحسرت عنها لترتد الى الشرق فتطوى دولة المماليك فى مصر والشام والحجاز وسواحل البحر الأحمر ، ولكنها وقفت دون فارس التى قاوم الصفويون فيها امتداد

---

(١) عجائب الآثار : ج ١ ص ١٩٤

الموجة العثمانية فلم تتخط الرافدين ، وأقاموا فيها دولة شيعية لا تدين بالولاء لخليفة سنى .

وكان ولاء العثمانيين للاسلام دون حماسهم للأخوة الاسلامية فلم يمدوا يد العون الى عرب الأندلس ، وكانوا قادرين عليها ، بل ان السلطان سليمان القانونى حالف «فرنسوا الأول» ولم يشأ أن يحالف عرب الأندلس فى محنتهم ، ولم يلقوا بالا الى مسلمى الشرقين الأوسط والأقصى ، وفصموا ما كان بين هؤلاء المسلمين والخلافة العربية من علاقات امتدت على التاريخ ، وكانت روح الفتح مع ما اتسمت به من حماس دينى تغلب فيهم روح الاخاء الاسلامى والوحدة الاسلامية ؛ فقام حكمهم على القهر والسلطان متسما بالحرص البالغ على مركزية السلطة وسيادة الدولة ، فلم يكن يبقى من الولاة فى ولايته ما يسمح له بوضع سياسة للاصلاح خوفا من أن ينقلب على الدولة ويخرج على طاعتها ، مما ضمن سلامتها ولكنه أدى بها الى التأخر وانتشار الجهل والفقر فى أرجائها ، انتشارا أخذ يزداد وتزداد معه النفوس والأبدان والعقول ضياعا وتلفا وانحطاطا ، فعمت الخرافة والبدعة وفتكت الأوبئة بالناس وزاد معدل الوفيات بين الأطفال حتى كان تعداد مصر يوم جاءتها الحملة الفرنسية لا يتجاوز ثلاثة ملايين ، وكان حالها من الجهل والتأخر على ما رأينا يوم جاءها أحمد باشا كور وزير واليا فى منتصف القرن الثامن عشر .

الا أننا لا نستطيع أن نحمل العثمانيين وحدهم وزر هذا

التأخر ، فقد لعبت فيه عوامل سبقت ضاعف الحكم العثمانى من آثارها ، ولم تكن هى الأخرى من صنع المماليك الذين انتهت اليهم السيادة والملك قبل العثمانيين ، ولا من صنع العناصر التركية الأخرى التى اقتسمت عالم الاسلام فى ظل العباسيين ولم يعد للخليفة العباسى معها غير مراسم الولاء . وشعائر الولاية دون السلطة والنفوذ ، فقد خدمت كل هذه العناصر عالم الاسلام بقدر ما واجهت من أعباء الحكم وتكاليف السلطان ، ولكن الانحلال والتأخر كانا قد بدآ يدبان فى جسم الدولة قبل ذلك بسنوات ، وجاءت غارات الصليبيين والمغول فأوهنت من عزمها واستنزفت مواردها ، وقضت غارة المغول بالذات على آخر آثار الحضارة العربية الغاربة فى بغداد ، فانتقل مركزها الى القاهرة فشهدت على أيام المماليك آخر خفقة من خفقات الذبالة قبل أن تنطفىء على ظلام بهيم .

وقد ورث المماليك عن الأيوبيين دولة مثقلة بالأعباء تعصف بها الأزمات المالية الحادة ، اتجه اليها الصليبيون بثقلهم بعد أن عرفوا أنها ملاذ الاسلام وحماه ، فحملت من ذلك أعظم الجهد أو الجهد كله ، فهى التى تجيش الجيوش وتزودها بآلة الحرب وتمدها بالميرة والنفقة ، وعلى أرضها يعد خير الفرسان وأبرع المقاتلين الذين صمدوا للتتار وأوقعوا بهم الهزيمة أربع مرات متواليات بعد أن طووا أرض الرافدين والهلال الخصيب يريدون وادى النيل ، ودكوا معالم الحضارة العربية فى بغداد

ودمشق وحلب ولم يعد غير القاهرة ملاذها الأخير ، وهم الذين قذفوا بآخر فلول الصليبيين الى البحر .

وبالرغم مما عصف من فقر بالبلاد فقـد شيدت العمائر وقامت المساجد والبيمارستانات والمنازه تعمر أنحاء القاهرة ، وصـنعت الطرف والمنسـوجات الثمينة وتقـدم فن النقش والزخرفة الاسلامية ، وعاش المماليك حياة مترفة غنية ناعمة ، فان سوء الحالة الاقتصـادية كانت تعوضه المكوس الباهظه التى تجبى على تجارة المرور ، فلما انقطع هـذا المورد عنهم أخذوا يعوضونه من المصريين مما زاد الحالة الاقتصادية سوءا ، وضاعف من فقر البلاد فضلا عن تواتر عدد من المماليك على حكم البـلاد لم تكن لهم مواهب المماليك الأول وقدرتهم ، فتركوا أجنادهم يعيثون فى الأرض فسـادا ويوقعون الأذى بالمصريين فلا يقـدرون على ردهم ، وجاء العثمانيون ومصر فضلا عن بلاد الشام فى حال لا يرجى لها صلاح .

ولم يكن العثمانيون خيرا من المماليك ان لم يقلوا عنهم ، فلم تكن لهم قدرة على النهوض والتجديد ، ولم تكن لهم حتى القدرة على التنظيم والتشريع فتركوا كل شىء على حاله وكل ما عناهم هو الابقاء على سيطرة الدولة وسـيادتها . فبقى المماليك يحكمون مصر مع الوالى ورجال الحامية العثمانية كما كانوا يحكمونها من قبل ، بل كانت سلطتهم تفوق أحيانا سلطة الوالى ، وبقى الحكم فى الشام للأمراء والشيوخ .

و « لم يزد الحكم العثمانى — كما يقول حسين مؤنس فى كتابه « الشرق الاسلامى فى العصر الحديث » — على أن ضرب نطاقا عسكريا حول البلاد وفرض عليها جبايات منظمة تؤدى كل عام ، وتركها بعد ذلك حرة تصرف أمورها على النحو الذى اعتادت أن تصرفها به قبل الفتح ، ولم تكسب الوحدات الاسلامية شيئا بهذا الفتح الجديد ، حتى الأمن الذى شملها فى السنوات الأولى منه ، لم يلبث أن اضطرب حبله وعاد الأمر فوضى كما كان ... واستمر الركود بل استحال خمودا ، وزادت الهمم هبوطا والعقول جهلا ، وتضاءلت فى نواحى الدولة بوارق النهوض الأدبى أو الفنى التى كانت تنبىء بالخير فى بعض نواحى مصر والشام ، فسكن كل شىء وركد فى ظل هذه الوحدة الظاهرة التى عرفت « بالدولة العثمانية » وانقطعت الصلات التجارية بين الشرق والغرب ، بعد أن كانت قائمة ماضية فى سبيل القوة فى أواخر أيام المماليك ، فكان انقطاع الصلات هذا أكبر العوامل فى تفوق أوربا على العالم الاسلامى اذ أنه وقف فى مكانه ومضت أوربا فى سبيلها قدما » .

عم الفقر والجهل ، وانحط الصحة العامة ، وعمت البدعة والشعوذة ، وجمد الدين الا من ظواهر الفروض والعبادات التى حرص الناس عليها أشد الحرص ، ومن تعلق بالاخاء الاسلامى يشد الناس بعضهم الى بعض ، وتحرص عليه الدولة بعد أن آل أمرها الى الضعف لتبقى على هيبتها وجلالها فى النفوس بصفتها دولة الخلافة وحامية الاسلام والمسلمين ، ولم

تكن من قبل حريصة عليها ، وما كانت الخلافة لديها الا شعيرة من شعائر الدين ، فلم تعن بها الا بعد أن بدت حاجتها اليها فغدت فى يديها وسيلة سياسية لتجميع المسلمين من حولها ليكونوا وقاءً لها أمام الضغط الأوربى الذى بدأ ينوش أطرافها ويسطو على حواشيها .

وقد علق الناس فعلا بالخلافة وان ظل التركى فى نظرهم صورة بغيضة للتعالى والاستبداد والتعسف ، الا أنهم لطول ما بلوا من عسف الحكام واستبدادهم لم يعد يعنيهم من أمر الحكم شيئا صلح أو فسد الا أن تسير حياتهم وفق نظامها الرتيب الموروث ، فانقطعت الصلة بين الحاكم والمحكوم ، وأصبح لكل منهما حياته التى يسلم بها للآخر .

ولكن المماليك وقد أصبحوا بدورهم من رعايا السلطان ــ وان بقيت لهم حياتهم وتقاليدهم القديمة وبقى لهم نفوذهم القديم ــ قد شعروا باقترابهم من المصريين وبانتسائهم الى الأرض التى شبوا فوقها فنما فى قلوبهم حب لمصر بدا أول الأمر خافتا ضئيلا لا يسفر عن ذاته حتى دهم الفرنسيون البلاد بالغارة ، فبرز كأقوى ما يكون فى صمودهم له ، ولعلهم رأوا فى دفاعهم عن مصر دفاعا عن كيانهم ووجودهم فى بلد ليس لهم كيان فى غيره ، وان بدا على لسان « الألفى » عند وفاته غير هذا ، اذ يردد فى احتضاره تلك العبارة التى يرويها الجبرتى على لسانه عندما يدون لوفيات سنة ١٢٢١ هـ ، وهى :

« يا مصر ، انظـرى الى أولادك وهم حولك مشـتتين متباعدين مشردين واستوطنك أجلاف الأتراك واليهود وأرذل الأرنؤود ، وصاروا يقبضون خراجك ، ويحاربون أولادك ، ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك ، ويفسقون بولدانك وحورك ، ويطمسون بهجتك ونورك ، ولم يزل يردد هـذا الكلام وأمثاله ، وقد تحرك به خلط دموى وفى الحال تقيـأ دما وقال : فض الأمر وخلصت مصر لمحمد على وما ثم من ينازعه ويغـالبه وجرى حكمه على المماليك المصرية ، فما أظن أن تقوم لهم راية بعد اليوم » .

وهو ما لا يردده غير واحد من أبناء مصر يرثى لما تردت فيه بلاده من هوان قبل أن يرثى لما حل بطائفته ، ويخترق حجب المستقبل فى أسى بالغ مما يوشك أن يقع لمصر ويلم ببنى جلدته من المماليك ، فقد انتهت الأمور الى محمـد على وأخذ يوطد سـلطانه ونفوذه فى خـير ايالات الدولة العثمانية ثراء وقوة واصالة .

وقد كشف مجىء الحملة الفرنسـية عن عظم الهوة التى تفصل بين حضارة الغرب الناهضة المتقـدمة وحضارة الشرق الآفلة والتى لم تبق منها غير تلك الذبالة التى تلفظ أنفاسها فى رحبات الأزهر ، ومن تعلق بماض كان آخر ما بقى فى نفوس المصريين يزودهم بالقوة والثقة والاعتزاز بالوطن والدين . كما كشف عن أصالة الروح المصرية التى صمدت لمقاومة الفرنسيين

يوم زلزل سلطان المماليك وتفرق شملهم وحاقت بهم الهزيمة فولوا فرارا أمام مدافع نابليون ، ويوم وقفوا لنصرة محمد على ضد منافسيه وضد رغبة السلطان ، وان كانوا فى صمودهم للفرنسيين يدفعهم الولاء الدينى . وفى انتصارهم لمحمد على يدفعهم احساس بشخصيتهم قبع خامدا فى وجدانهم حتى كشفت عنه أحداث تلك الفترة ، وهو احساس لا يتنافى مع الولاء الدينى الذى يفرض عليهم طاعة الخليفة ، فكان ظهوره بادرة لوعى جديد ، عبر عنه السيد عمر مكرم فى جوابه على مندوب خورشيد باشا الوالى الذى نصبه الخليفة على مصر اذ سأله : ــ كيف تثورون على من ولاه السلطان عليكم ، وقد قال الله تعالى : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » .

ورد السيد عمر مكرم :

ــ ألا فاعلم أن أولى الأمر هم العلماء وحملة الشريعة والسلطان العادل : وهذا الحاكم الذى أرسلكم ما هو الا رجل ظالم خارج على قانون البلاد وشريعتها ، فلقد كان لأهل مصر دائما الحق فى أن يعزلوا الوالى اذا أساء ولم يرض الناس عنه ، على أننى لا أكتفى بذكر ما جرت عليه عادة البلاد منذ الأزمنة القديمة ، بل أذكر لك أن السلطان أو الخليفة نفسه اذا سار فى الناس سيرة الجور والظلم كان لهم عزله وخلعه »[1] .

---

(١) زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم : ص ١٤٩

وكان هذا حكم الاسلام فى صدر الاسلام فلما تحولت الخلافة الى ملك عضود لم يكن هناك من يجرؤ على مجاهرة السلطان بحقوق الرعية ، وغدا رجال الدين ردفا وسندا للسلطان فى كل ما يهوى وينشد الا فى الخروج على الشريعة ، وعرف السلطان ذلك فأقام نفسه حاميا للشريعة .

ولكن عمر مكرم لا يثور بالسلطان ولا يخرج على الولاء له ، وانما يجاهد بحق الرعية فى اختيار الحاكم الصالح وهو ما أوجبه الاسلام وعرفه المصريون حين كان « شيخ البلد » زعيم المماليك يتوجه الى مقر الوالى بالقلعة فيطوى البساط من تحته ايذانا بعزله ، وما على السلطان الا أن يعين بديله .

لم يكن عزل الوالى أو مخالفة السلطان فى أمره شيئا ادا أو كبيرة من الكبائر ، ولم يأت عمر مكرم فى ذلك بجديد حين انحاز الى محمد على وحمل المصريين على اختياره ، ولكن الجديد فى الأمر أن المصريين قد قاموا بما كان يقوم به المماليك من عزل الوالى ، ففى وسط تلك الفوضى الضاربة أطنابها والتى تعصف بالمصريين وحدهم دون غيرهم ، كان لا بد لهم من اختيار من يظنونه قادرا على اعادة الأمن والاستقرار للبلاد ، وكان اختيارهم لمحمد على ، اختيارا يقوم على مواجهة الواقع من أمرهم ، فلا أثر فيه لحافز قومى أو وطنى ، وان حمل تلك البادرة من الوعى الجديد الذى يمكن أن يتطور فيغدو وعيا قوميا ناضجا ، وان لم يتعد حينذاك الاحساس بالذات ، ولم يكن هذا الوعى الجديد أثرا من أثار الموجة الغربية القادمة مع

الفرنسيين ، بقـدر ما كان من أثر الأحـداث التى ألمت بعصر حينذاك ، والتى كشفت عن سلامة الشخصـية المصرية التى اعتقد البعض أنها بادرة لوعى قومى وليد ، فلم تكن القومية قد تأكدت صورتها حتى فى أوربا بعد ، وان أخذت تنمو مع النهضة الى المدى الذى بلغته خلال القرن التاسع عشر ، وانما كان هذا الوعى الجديد دليلا على يقظة المشاعر الاسلامية عند المصريين ، وانبعاث عاطفة اعتبار الذات عندما قرعتها الأحداث فدفعت بها الى الظهور والحركة . ضد الفرنسيين أولا ، وضد العثمانيين والمماليك يوم ارتحل الفرنسيون عن البلاد .

الا أن حركة المصريين لم تنهض بهم الى المبادرة وامتلاك الزمام فتركوه يفلت منهم الى من أراد الامساك به ، وكانت الظروف مواتية للمغامر الذى يتقدم ويمسك بالأعنة ، وكان هذا المغامر حذرا يرقب الأمور عن كثب ، فلم يلمحه « الكولونيل ويلسون » [1] عندما أبدى دهشته عام ١٨٠٣ من عـدم وجود مغامر قوى طموح يقود فرقة من الجنـد لمقاومة المماليك ، وأعرب أمريكى عاش فى القاهرة عام ١٨٠٤ فى رسالة الى السير « الكسندر بول » قنصل انجلترا فى مالطة عن حالة مصر فقال : « ان مصر من غير رئيس ، ولا بد لهـا من رئيس جـديد ، وستقابل بالترحيب أول متقدم » .

---

(1) Wilson. Sir Robert T. : History of the British Expédition to Egypt.

وحين تقدم هذا المعامر — وكان حدرا أكثر منه جريئا ، وماكرا أكثر منه صريحا — رأى بثاقب بصره أن المصريين هم الكفة الراجحة فى الميزان ، فعمل على كسب ثقتهم ، ولعله كان يعتقد — وهو ما أثبتته الأيام من ظنه بهم — أنهم لا يتصدرون للحكم ولا يرون فى أنفسهم القدرة عليه ، وان كان من الممكن أن يميلوا بكفة الميزان الى الجانب الذى يبغونه .

ولم يكن المصريون حقا بطامعين فى الحكم ، وكانوا يرون أنفسهم دونه حتى وان كانت لهم القدرة عليه ، فلم يكن محمد على أو من سبقه من المماليك الذين حكموا أو الذين طمعوا فى الحكم بعد جلاء الفرنسيين أكثر من زعمائهم قدرة أو أحد ذكاء ، ولكن المصريين كانوا يعتقدون أن حقهم هو دون الولاية وان عداه الى الاختيار ، واختيارهم للولاية مصريا قد يعد ثورة على نظام الدولة الذى جرت عليه وأخذت به منذ قيامها ، مما يتنافى مع الولاء الذى يكنونه لدولة الاسلام ولخليفة المسلمين ، فاذا كان لهم أن يختاروا فان اختيارهم يجب ألا يخرج على نظام الدولة فى اختيارها للولاة ، وقد جرت الدولة على اختيار الولاة من الباشوات الأتراك فى مصر وفى غير مصر من البلاد التى تتبعها .

وكان محمد على يعرف ذلك ويدركه تماما ، فعمل على التخلص من الباشوات الأتراك فى مصر واحدا بعد الآخر حتى لم يعد فيها من يصلح للولاية غيره ، فاذا ضمن تأييد المصريين فالولاية من نصيبه ، فقد يجد السلطان فى تأييد المصريين له

وفى استقرار الحال على يديه الخلاص من تلك الفوضى التى تزعجه فيثبته فى الولاية ، ويرضى باختيـــار المصريين له وهو ما كان ، اذ وصل الفرمان بتثبيت محمـــد على واقرار اختيار المصريين له واليا فى الثامن عشر من يوليه سنة ١٨٠٥ ، وكانت بداية لصفحة جديدة من تاريخ مصر .

لم تكن حملة الفرنسيين على مصر اذن هى التى حركت المصريين ، ولم تكن الآراء التى جاء بها الفرنسيون هى التى حملتهم على التعبير عن ذاتهم ، ولكن طبيعة الحملة وأحداثها هى التى كشفت لهم عن ذاتهم ودفعتهم الى الحركة ، فقـــد ذكرتهم الحملة بغارة الصـــليبيين على بلاد الاســـلام فانبعثت حميتهم للاسلام ، ورأوا هزيمة المماليك وعجز العثمانيين عن الدفاع فقاموا بالأمر عنهم اذ لم يعـــد غيرهم من يقـــوم به ، وشهدوا ما تردت فيه البلاد من فوضى بعد رحيل الفرنسيين فلم يكن أمامهم الا أن يعملوا على رد تلك الفوضى باختيار من يعتقدون صلاحه ، وكشف كل هذا عن حيـــوية لم تقض عليها المحن والرزايا والمظالم التى عصفت بهم ، ولم يذهب بها ما ناءت به البلاد من سوء وفقر وتأخر .

هذه الحيـــوية التى لا تفنى ولا ينضب لهـــا معين لدى المصريين والتى تتوارى حتى تكشف عنها الأحداث هى سر بقائهم ، وهى التى تبعثهم فى يقظة يظنها من يراهم أنهم خلقوا خلقا جديدا .

وقد كشفت أحداث الحملة الفرنسية وما بعدها عن تلك

الحيوية ليتلقفها محمد على فيففه دونها ، ويطوعها لخدمة أغراضه ومراميه ، ولكنها لا تثمر ما كانت تثمره اذا ما انطلقت من عقالها .

فما أن تسنم محمد على غارب الحكم ودانت له الأمور خالصة من كل رقابة بعد أن أبعد السيد عمر مكرم ونفاه الى دمياط ، حتى أخذ يدفع بالمصريين دفعاً لا رأى لهم فيه ، ويسوقهم سوق الابل الى تحقيق طموحه ، فاتسمت أعماله بالفردية والأثرة ، فكان حاكما مستبدا ، وكان يؤثر الأتراك على المصريين ولا يراهم « يصلحون — كما يقول « دودول » [1] على لسانه — الا لحمل الأثقال وسوق الحمر » . ولم يحسن الظن بهم فى يوم من الأيام ، وظل يعتمد على الأتراك والأجانب ، وقد بصره «دروڤتى Drovetti » قنصل فرنسا بمزايا المصريين وحسن استعدادهم وذكائهم الفطرى ونصحه بالاستعانة بهم ، ولكنه لم يستعن بهم الا تحت ضغط الحاجة وعلى قدر ما يمكنه الاستغناء عنهم .

وأقام محمد على دولة حديثة ، ودفع بالجنود المصريين الى الشام والمورة حاملين ألوية النصر والمجد له ، ولكنه فشل — لسوء ما كان يلقاه الجند — فى غرس روح الجندية بين المصريين ، وأقام القناطر والسدود وأصلح نظام الرى وكون جهازا اداريا محكما ، ولكنه عجز عن أن يحمل المصريين على

---

(1) Dodwell Henry : The Founder of Modern Egypt. A Study of Mohamed Ali :

الايمان بأعماله فشاد فى الهواء وأقام بناءه فى فراغ فلم يلبث أن تحطم بعد وفاته .

ولم يكن للمصريين حظ فى أرباحه ، ولم يجنوا فائدة من مشروعاته ، فقد استصلح مائتى ألف فدان ، وأدخل زراعة القطن وغيره من الزراعات المثمرة ، ولكن الفلاح لم يجن من ورائها شيئا ، وظل الفلاح الأجير الفقير البائس كما كان من قبل ، وأقام المصانع ولكن العامل لم ينل من أجر الا ما دون الكفاف ، وكانت السخرة عبودية ينوء بها المصريون فى القرى والمدن ، ولم يكن لهم الا أن يؤمروا فيطيعوا

وافتتح المدارس وأرسل البعوث الى أوربا لسده بحاجته من الخبراء والفنيين فحسب . فلم يكن تعليم الشعب أو تثقيفه غرضا من أغراضه ، فلما انقضت حاجته منها انتهى أمرها الى الزوال ، ولم تجد ردفا من الشعب يمد فى حياتها أو يطورها بالاصلاح والتجديد ، فقد عجز محمد على عن أن يحصل الرعية على الايمان بأعماله ومشروعاته ، فبقدر ما شاد وأقام من صروح العمران والحضارة المادية ، لم يلق بالا الى بناء الأذهان والعقول أو التربية الفكرية والاجتماعية التى تدعم بناءه ، وبقى الشعب بمعزل عن تفكيره واتجاهاته فشقى بالحرمان أكثر مما سعد بالعمران .

ولا نغمط الرجل حقه ، فقد أقام بناء دولة حديثة ، وحمل المصريين كرها على القيام بالدور العظيم فى هذا البناء دون أن يعدهم له أو يقوم بأقل جهد فى تقويم روح الشعب لادراك

آماله ومراميه ، وحكم البلاد حكما شرقيا مستبدا بأسلوب العثمانى الماكر الطموح الحاذق فى تدبير المؤامرات ، الراغب فى التوسع والسلطان ، فعاش بمعزل عن سواد الناس بعد أن أبعدهم عن تفكيره ، ولم يسع الى اشراكهم فى مسئولية العمل العظيم الذى يقوم به ، بل لعله كان يراهم دون ذلك ، وماعليهم الا أن يمدوه بحاجته من المال والعمال دون أن يكون لهم رأى فيما يعمل ، وكأن مصر لم تكن غير مزرعة يستثمرها لحسابه على أحدث الأساليب وليس منها عائد الا له وحده ، وللزراع الكفاف أو ما يقيم الأود فحسب .

وقد تحمل المصريون فى « رفعه وصبا وجهدا بليغا وبذلوا فى سبيله بذلا كريما ، فكانوا حقيقين لديه بالتربية والتعليم ، وليست هناك أمة تهذبت وارتقت من غير معلم ، وليست هناك أمة تسمو وتعلو مع انصراف حكامها عنها وتخذيلهم اياها . لو فعل محمد على ذلك لضمن لاصلاحه قوة وثباتا من روح الشعب وقوته ، ولوجدت بذوره تربة طيبة تغيب فيها لتنبت نباتا زكيا ، ولكان اصلاحه مس الأساس دون السطوح ، أما وقد أبعد أهل البلاد فقد جعل عمله سطحيا زائلا يقوم بقيامه ويموت بموته ، ولو كان المصريون شركاء له فى العمل لما انهدم عمله عن آخره بعد وفاته [1] » .

وكان فى مصر على عهده وقبل عهده رجال ممن يمكن أن

---

(١) الشرق الاسلامى فى العصر الحديث ص : ١٤٥

يشاركوا فى الحكم ، ولهم من محبة الشعب ما يسند عمله وجهده ، وجاءت أحداث الحملة الفرنسية فكشفت عن صدقهم وأصالتهم وجدارتهم بالمسئولية ، كما كشفت عن روح الشعب ودفعته الى المبادرة والحركة واليقظة الفكرية ، ولكنه أخمد كل هذا وقضى عليه ، ورد الشعب الى أسوأ مما كان عليه فى أيام المماليك ذلة وخضوعا ، فكرهه الناس ووقفوا منه موقف العدو ، ولم تكن طاعتهم له الا استسلاما للسلطان ونزولا على حكم الاستبداد .

وكان من الممكن أن تثمر حيوية الشعب لو وجدت من يدفعها دفعا سليما ، وأن تبدع يقظته الفكرية نهضة ، كانت بوادرها تلوح من قبل لا فى مصر وحدها ، بل فى كثير من بلاد السلطنة ، وما كانت حركة محمد عبد الوهاب فى نجد الا بادرة من تلك البوادر ، والعجيب أن يكون القضاء على حركة ابن عبد الوهاب وحركة المصريين على يد محمد على ، فترتد البلاد — الى حين — الى نوع من الخمود وان لم يستطع أن يوارى الجمر الذى يتقد تحت الرماد . فما لبثت أن تلاقت الموجتان الغربية والشرقية بعد سنوات على يقظة وحيوية انبعثتا فى فرقعة هائلة على يد جمال الدين الأفغانى فى مصر وفارس ، ومدحت باشا فى تركيا ، والادريسى والسنوسى والشوكانى وأحمد خان فى غيرهما من بلاد الاسلام . وأخذت تسفر عن نفسها فى شىء من الابهام والتحفظ على يد رفاعة

رافع الطهطاوى فى مصر على عهد محمد على حتى أيام اسماعيل ، وكانت زادا للنهضة الفكرية فى مصر بعد ذلك بسنوات .

أقام محمد على بناء مصر المادى ولكنه قصر فى بنائها الروحى والاجتماعى فكانت النكسة ، لا فى موقف الدول واجبارها له على الاستسلام والخضوع ، ولكن فى ردة البلاد الى الخمود الذى عانته فى العصر العثمانى . الا أن الموجة الغربية أخذت تتوالى على مصر ، وكانت بوادر اليقظة قد أخذت تلفح شعوب الشرق الاسلامى النائمة وكان رفاعة رافع الطهطاوى رائد الفكر المصرى الحديث سمة على هاتين الظاهرتين : ظاهرة امتـــداد الموجة الغربية الى الشرق ، وظاهرة اليقظة الاسلامية الحديثة فالتقى فى فكره الشرق والغرب على وفاق .

الموجة الغربية

عادت فلول الصليبيين من الشرق بزاد جديد كان غذاء لنهضة سرعان ما أسفرت عن انطلاقة عقل أخذ يضرب فى آفاق الحياة بسلطان العلم والفكر حتى استوت على درجة من التقدم عدا الشرق حيالها ـ بعد أن قعد به الجسود والتخلف ـ قزما ضئيلا متهاويا .

وعادوا أيضا وهم يحملون من توقير المسلمين والحضارة العربية ما حمل مؤرخا « كهيرنشو » على أن يقول :

« خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين فاذا هم جلوس عند أقدامهم ، يأخذون عنهم العلم والمعرفة ، لقد بهت أشباه الهمج من مقاتلة الصليبيين عندما رأوا (الكفار) الذين كانوا ينكرون من الناحية اللاهوتية دياناتهم ، على حضارة دنيوية ترجح حضارتهم رجحانا لا تصح معه المقارنة بينهما » [1] .

وبقى هذا التوقير فى نفوس الأوربيين ، وبقيت معه ملاحم الحروب الصليبية وانتصارات العثمانيين فى أوربا تعلى من بأس العالم الاسلامى ، ثم بدأوا يدركون أن العملاق قد انقلب قزما

---

(١) المؤلف : التاريخ والسير ص ٣٢ ، وعلم التاريخ ص ٣١ ترجمة العبادى .

مما كانوا يسمعون من أقاصيص الرحالة عن تدهور العالم الاسلامى وضعف شعوبه فانبعث فيهم الطمع القديم فى امتلاكه والقضاء عليه .

وكانت العزلة قد ضربت نطاقها حول الدولة العثمانية بعد أن انصرف الأوربيون عن البحر المتوسط الى البحار الجنوبية واقتطع التجارة التى تغدق على أهله وعلى حكامه الربح الوفير ، فعم الفقر وفى أذياله استشرى الجهل فجمدت العقول حتى ذكر القنصل الروسى « دوهاميل » أن مصر حين وليها محمد على لم يكن بها أكثر من مائتين يعرفون القراءة والكتابة باستثناء الكتبة من القبط ، ولم يكن فى دمشق أو حلب بائع واحد للكتب — كما يقول « بورنج » فى تقريره عن التجارة فى الشام — مما يدل على انعدام التعليم بصورة عامة انعداما قل معه الاقبال على طلب الكتب .

فلما جاء الفرنسيون الى مصر ، أيقظوا فى المصريين ذكريات قديمة لغارة المسيحيين على العالم الاسلامى ، واعتقدوا أنها غارة جديدة لا تلبث أن تتحطم أمام صدمات المماليك القوية كما تحطمت غاراتهم من قبل أمام قطز وبيبرس وقلاوون ، وما لبثوا أن أدركوا أن عهد المماليك العظام قد مضى ، وان المماليك الذين يحكمونهم ليسوا الا ظلالا زائفة لبطولة أفلت وانقضى عهدها ، وأدركوا أيضا أن شيئا جديدا قد حدث لا عهد لهم به ، قد أيقظتهم عليه مدافع بونابرت التى قصفت

فرسان المماليك وكأنها كانت تقصف فى الوقت نفسه عقولهم وقلوبهم .

رأى المصريون لونا جديدا من الحياة أنكروه أشد الانكار ، واستمعوا الى أفكار بهمت فى عقولهم وظلوا منها فى حيرة ، ثم أنكروها هى الأخرى لأنها من بدع الأفرنج ، ولكنهم أيقنوا أخيرا أن تحولا خطيرا قد طرأ على هذا العالم .

ولعلهم قرأوا منشور بونابرت فكذبوا ما ادعاه من « أن الفرنساوية هم أيضا مسلمون مخلصون » ولكنهم دون شك قد وقفوا عند كلماته متأملين وهو يخاطبهم :

« وقولوا أيضا لهم ان جميع الناس متساوون عند الله وان الشىء الذى يفرقهم عن بعضهم هو العقل والفضائل والعلوم فقط ، وبين المماليك والعقل والفضل تضارب فماذا يميزهم عن غيرهم حتى يستوجبوا أن يتملكوا مصر وحدهم ، ويختصوا بكل شىء حسن فيها من الجوارى الحسان ، والخيل العتاق ، والمساكن المفرحة » .

« فاذا كانت الأرض التزاما للماليك ، فليرونا الحجة التى كتبها الله لهم ! ولكن رب العالمين رءوف وعادل وحليم » .

« ولكن بعونه تعالى ، من الآن فصاعدا ، لا ييأس أحد من أهالى مصر عن الدخول فى المناصب السامية ، وعن اكتساب المراتب العالية ، فالعلماء والفضلاء والعقلاء بينهم سيدبرون الأمور ، وبذلك يصلح حال الأمة كلها » .

فلم يكن فى تفكيرهم وعقيدتهم ما يمنع المساواة بين الناس ،

ولم يكن هناك ما يحول بينهم وبين ارتقاء المناصب العالية ، مما يشير اليه الجبرتى كما يشير الى ضيق المصريين بالمماليك واحتقارهم للأتراك بعد أن عجزوا عن حماية بلادهم ، واعجابهم بما بدا من امتياز الفرنسيين وتفوقهم فى النظام والادارة والحرب .

ولا ريب أنهم قد سمعوا أيضا أن الفرنسيين قد افتتحوا معهدا بالقاهرة ، ورأوا رجالا منهم لا شأن لهم بالسياسة والحرب يجوبون الديار بحثا وتنقيبا فى آثارهم ، وان لم يعرفوا ــ كما نعتقد ــ أن ضابطا فرنسيا قد عثر على حجر سيكون له أبعد الأثر فى الكشف عن تاريخ مصر القديم ، ولكنهم عرفوا أن « كوتتيه » أحد علمائهم قد بدأ ينشىء المصانع ويعنى بالزراعة والمحاصيل حتى يعود الى البلاد رخاؤها القديم .

الا أنهم ظلوا ينظرون الى الفرنسيين نظرتهم الى المغير الغريب ، فلم تمس تلك الأفكار الجديدة قلوبهم بقدر ما مست عقولهم ، وغلبت العادة والعاطفة حكم العقل الباهت فبقى تفكيرهم بنجوة منها ، ولم يصح فيهم غير اعتبارهم لذاتهم فى خضم الصراع القائم حول مصر داخل البلاد وخارجها فى الآستانة ولندن وباريس .

ثم جاء محمد على فأخذ ينظم المزرعة التى اغتصبها بالمكر والخديعة على نمط جديد يدر عليه أعظم ما ينشده من ربح ، وبدأ يستهدى النظم الأوربية ادارته وتشريعاته ، وكان فى

حاجة إلى الرجال الذين يقومون بالعمل معه ولحسابه ، فقد أصبحت مصر حكرا كبيرا له ولأسرته ، فلم يغب عن باله أبدا مستقبل أسرته فى هذه الضيعة الجديدة ، فأنشأ المدارس التى تمده بحاجته من الفنيين والاداريين ، وأرسل البعوث الى أوربا لتكون ادارته على أحسن نمط من الاستثمار المنشود . وكان الرجل قادرا حقا فى هذا المضمار ، بل كان منشئا واداريا تجلت عبقريته فى كل ما امتدت اليه يده من عمل ، فقد أنشأ المصانع وبنى السدود والقناطر وحفر الترع وافتتح المدارس ، وأنزل الى البحر أسطولين من المواخر على اختلافها فى كل منهما عشر بوارج كبيرة ، واستطاع أن يعد جيشا قوامه مائة ألف جندى بالعتاد والكسى والمرتبات . وخاض حروبا عديدة فى الجزيرة العربية والسودان والشام والمورة مما يقتضى كثيرا من النفقة ، وابتاع ضمائر الحكام فى الآستانة وقناصل الدول بالرشا والهدايا ، مما يثقل ميزانيته بأبهظ الأعباء ، ولكنه ظل طوال حياته بمنأى من الديون ولم يلجأ الى الافتراض ، وأحكم دخله ومنصرفه فلم تشك ميزانيته نوعا من الخلل ، وكان لديه على الدوام مبلغ متوفر فى احتياطى الميزانية .

ولم تكن الخبرة الأوربية هى التى أمدته بتلك القدرة ، فقد ظل الرجل شرقيا فى طابعه وفى تفكيره ، بل أن نظم الحياة لم تتغير فى عهده عما قبلها ، وكل ما عمله أنه استعان بالأساليب الأوربية لتهذيبها واصلاحها ، أو لأحكام ادارتها حتى تفىء عليه أعظم الربح ، فنظامه الاحتكارى لم يكن نظاما أوربيا بل

كان نظاما شرقيا فى صميمه ، ولكنه عرف كيف يحــول هذا النظام الى عمل استثمارى ضخم أداره وفقا لأساليب الادارة الأوربية ، ولم يضع لايراداته وماليته ــ لعهد طويل ــ ميزانيه مفصلة ، بل كان كل المال يرد اليه وينفق منه دون تبنيد أو قيود حسابية على غرار ما كان يجرى فى الشرق ، ولكنه كان حريصا على أن تكون نفقاته أقل من ايراداته ، كما ظل على طابع الحكام الأتراك من المكر والخديعة اللذين كثيرا ما أعاناه على تحقيق مآربه .

وكانت فكرته عن التعليم شرقية لا غربيــة [١] ، فلم يعن بالفكر والثقافة ، ولم يقصــد من ورائه غير اعداد نفــر من القادرين على خدمته وخدمة الدولة التى يملكها ملكية تامة ، فافتتح المدارس وأرسل البعــوث الى أوربا لهــذا الغرض فحسب ، فبقيت الموجة الغربية تنحسر عند شواطئه ولا تمتد الى أفكار المصريين وقلوبهم .

ثم كان هذا الصراع الدولى الجديد حول تحديد مستقبل مصر ومركز عاهلها القوى بداية ما عرف بالمسألة المصرية التى كتبت الحملة الفرنسية أولى صفحاتها ، وأيقظت دول الغرب الاستعمارية على أهمية مصر وموقعها الفــريد فى قلب العالم القديم ، كما كان بداية لموجة من المد الغربى فى صورة جديدة : صورة أرجال من الأجانب الوافدين تبحث عن فرص جديدة

---

(١) الشرق الاسلامى ص ١٦٢ ، ١٦٣

للعمل والثراء ، وأموال أخذت تتدفق على البـلاد فى شكل قروض واستثمارات تجارية ما لبثت بعد زمن أن سيطرت على اقتصاديات البلاد ومرافقها العامة .

ولم يعن المصريون كثيرا بهذا الصراع الدائر حولهم ، فما كان لهم منذ عهد بعيد ككل شعوب الشرق شأن بالسياسة ، وكل ما عناهم هو الخوف من الغارة الأوربية التى ترتبط دائما فى أذهانهم بذكريات الحروب الصليبية والعـدوان على بلاد الاسلام والمسلمين ، فما كانت أوربا تطالعهم دائما الا بالجيوش والسلاح ، وها هى تنقض عليهم مرة أخرى ، بل ان المغيرين هم أنفسهم من الفرنسـيين الذين ذاقوا الهزيمة على يد قطز وبيبرس من قبل ، حتى الانجليز هم الآخرون قد أغاروا على البلاد بعد الفرنسيين ولما تنقض بضع سنوات ، فيثورون على الفرنسيين ويهبون لمقاتلة الانجليز فى رشـيد ويقضون عليهم قبل أن تسـعفهم جيوش محمد على ، وفى الحالين لا يدفعهم الولاء للدولة قدر ما يدفعهم الولاء للاسلام ، فما كانت الدولة تعنيهم هم وغيرهم من أمم الشرق التى عانت من عبث الحكام واستبدادهم ما يفوق استبداد المغير ، ولقد رأوا أن حكم الفرنسيين كان أرفق بهم من حكم المماليك ، ولكن الدين هو الذى يقربهم من المماليك ويبعدهم عن الفرنسيين .

لم يكن اللقاء بين الغرب والشرق اذن لقاءً حميدا ، فتوجس المصريون من كل ما يجيء به شرا ، وأصبح الشرق كله —

كلما زاد الاحتكاك بينه وبين الغرب — فى وجل من الخطر الذى يكمن فى مجيئه .

وذهبت الموجة الأولى التى جاءت بقدوم الفرنسيين وقد أيقظت المصريين على عالم جديد أشد صخبا وحيوية مما ألفت حياتهم فى ظل العثمانيين والمماليك ، ولكنها لم تترك فى نفوسهم أثرا كبيرا لكثرة ماناشتهم الأحداث بعد ذلك ، فلم يكن لديهم الوقت أو الهدوء للتأمل والاستيعاب . وجاء محمد على فمد ذراعيه الى أوربا دون أن يسمح للمثل الأوربية بالاقتراب من حياة المصريين ، وان لم يحمل توقيرا كبيرا لما درج عليه المصريون من عادات وتقاليد ، ولكنه لم يصطدم بهذا الجانب من حياتهم كما اصطدم به الفرنسيون ، فكثيرا ما خرج عليه ما دام فيه نفع له ، فشارك فى تجارة الخمور ، واحتكر صناعة العرقى وسمح بتشريح الأجساد ، واحتكم الى العرف فيما يتصل بالمعاملات التجارية دون أن يتقيد بأحكام الشرع التى كان المسلمون يتقاضون فى حدودها .

وانقضى عصر محمد على دون أن يترك الاحتكاك بينه وبين أوربا أثرا فى حياة المصريين العقلية والاجتماعية ، وظل محمد على حتى فى بلاطه شرقيا تركيا لا تختلف حياته كثيرا عما كانت عليه حياة سيده الشرعى فى الآستانة ، وبقيت حياة الموسرين — وكانوا من الطبقة التركية الحاكمة — تجرى على سنن الحياة العثمانية وتقاليدها ، أما السواد الأعظم من الناس

فلم يكن ثمة تغيير كبير فى حياتهم الا أن ازدادوا فقــرا على فقر ، وعصرهم الاملاق حتى أجدبت معه عقولهم وقلوبهم ، ولاذوا بالصمت يجترون آلامهم فى سكون .

ولكن الموجة الغربية ظلت تنوش البلاد بالعدوان ، وتثير مكامن الحذر من غارة أوربية ، وبدأت فرنسا الجولة بالعدوان على الجزائر عام ١٨٣٠ وكانت بريطانيا قد أخــذت تفــرض ارادتها على بعض امارات الخليج والجنــوب العربى واحتلت عدن عام ١٨٣٩ ولم يشعر عرب المشرق بالضغط الأوربى الذى يقــع على الدولة العثمانية قــدر ما شعروا بوقر الاستبداد العثمانى ومظالمه .

وهكذا بدأت الموجة الغربية امتدادها بالعدوان قبل آن تطالع البلاد بحضارتها وتقدمها ، بل حالت بينها وبين التقدم ، وعملت على أن تظل فى خمودها حتى يتسنى لها اقتطافها عندما تنضج الثمرة ويحين وقت القطاف .

وكان هذا اللقاء العدائى بين الغرب والشرق هو الذى حفز أمم الشرق على استجلاء واقعها وتبصر حالها واكتناه علتها ، وخرجت من مرحلة التأمل وقد عرفت داءها واستبانت دواءها ، وأدركت أن قوة الغرب فى تقدمه وتفوقه الحضــارى فكيف السبيل الى التقدم ؟ وما هو الطريق لبلوغ ما بلغه الغرب من حضارة ؟

هنا بدأت الموجة الغربية تلطم عقول الناس وقلوبهم وتنفذ

اليها ، وهنا كانت دعوة الاصلاح ثمرة الاحســاس بالتخلف والجمود ، وهنا كان رفاعة رافع الطهطاوى رائد حركة لم تثمر على يديه وان شهد تباشيرها فى أخريات أيامه عندما تهيأت العقول لتقبل حركة الاصلاح ، وأخذت البلاد تسلك سبيلها الى الثورة السياسية والفكرية والاجتماعية .

شرق وغرب

كان قمينا باصلاحات محمد على أن تكون أساسا لنهضة تستمر وتثمر فى حياة البلاد ، وكان قمينا بالبعوث التى أوفدها الى أوربا أن تكون نواة تقدم يشمل كل نواحى الحياة فى مصر لولا أن محمد على لم يدع للشعب نصيبا فى مشروعاته ، فلم يكن يؤمن بقدرة هذا الشعب على تحمل المسئولية أو المشاركة فيها ، ولعله كان يحذر هذا الشعب ويخشاه ولا يثق به كما صرح بذلك مرة للقنصل الروسى فى مصر [1] وبقى هذا الحذر من المصريين كامنا فى أبناء أسرته من بعده ، فالأمير عمر طوسون — ويعد من أصلح رجال هذه الأسرة — يحمد لمحمد على أنه أقصى المصريين عن الارتقاء « الى مراتب القيادة » فى الجيش فيقول عنهم انهم « عندما يرتقون الى مراتب القيـــادة .... لا يحسنون القيام بواجبهم ولا يعتزون بكرامة مراكزهم » ثم يقول : « وربما كان هذا من حظ محمد على ويمن طالعه ، لأن المصريين شعب سريع التقلب ، وهو من هذه الوجهة لا يؤمن

---

(1) René Cattaoui : Le régne de Mohamed Ali d'apres Les archives Russes en Egypte. Le Caire, 1931. I, pp. 425—426.

جانبه فلو سلمت قيادة الجيش الى ضباط من جنسه لخيف أن ينزعوا يوما الى الفتنة والتمرد »[1] .

وأورثه هذا الحذر فشل مشروعاته فى النهاية ، فلم تغرب حياته حتى رأى البذرة التى أنبتها قد ذوت وذبلت ، وكان هو نفسه قد يئس منها وأهملها بعد أن رأى أنها لم تعد ذات نفع له ، اذ ختم فرمان ٢٢ مايو ١٨٤١ آماله وطموحه ، وعرف أن كل ما ناله على طول الجهد والعناء ولاية مصر وراثية فى أكبر أبنائه . فأقفلت المدارس وأهملت المصانع وكأنها لم تقم الا لخدمة طموحه ، فلما انقضت الحاجة منها ، انتهت الحاجة اليها .

وارتدت البـــلاد بعده الى نوع من الخمـــود لم يحسه الشعب ، فقد فرض عليه النشاط كما فرض عليه الخمود ، وهو فى الحالين لا يد له فى النشاط أو فى الخمود ، فأقفـــل عباس المدارس ولم يبق منها غير القليل ، ، وتوقفت المصانع وفصم ما بينه وبين أوربا ، فاستغنى عن الموظفين الفرنسيين وكانت منهم كثرة الأجانب الذين يعملون فى الحكومة ، كما استغنى عن جهود العلماء من مصريين وأجانب ، وأهمل العلم اهمالا أقفرت معه حركة التأليف والترجمة ولم تكن قد استوت بعد على أساس صحيح .

وعاقت الردة ما كان يمكن أن تثمره جهود المبعوثين بعـــد عودتهم وبعد أن تمرسوا بما لحقوا من أعمال أبيه قبل أن يدركهم

(١) المؤلف : احمد لطفى السيد ص ١٤ أعلام العرب عدد ٣٩

البوار ، فقد ارتبط جهد هؤلاء المبعوثين بنشاط الدولة وما كان يمكن أن تثمر أعمالهم بعيدا عنها ، فلاذوا بوظائفهم وجمدت جهودهم عندما جمد نشاط الدولة . ولم يبرز من بينهم الا من امتد نشاطه بعيداً عن قيود الوظيفة ، وكان رفاعة رافع الطهطاوى أبرز أقرانه فى هذا فخلد أثره كما خلد أثر من امتد بجهده منهم الى أبعد من قيود الوظيفة ، وغدا رفاعة فى جيله رائد فكر وامام نهضة لم تثمر فى عصره وان وضعت البذرة التى نبتت وأثمرت على يد من جاءوا بعده .

والتقى الشرق والغرب فى عقله وقلبه على وفاق ، فلم يكن هذا الفتى الذى أوفى على الغاية من تعليمه فى الأزهر واشتغل بتدريس علوم الدين واللغة فيه وفى غيره من المساجد فى طهطا وملوى [1] ، ونظم الشعر وعمل واعظا واماما فى جيش محمد على ، متعصبا أو منطويا على ذاته ، بل كان الى جانب تدينه مستوى النفس ، رحب الأفق ، يحكم العقل قبل أن تتحكم فيه العاطفة ، ميالا الى التجديد أكثر منه الى المحافظة ، قوى الملاحظة يدون ما يراه بصدق ، يقرأ ويستوعب مايقرأ ويتمثله ، يسوق الرأى فيما يدون عما يشاهد ، ويأتى بالمثل المنشود فيما يكتب أو يؤلف فى لين وهوادة تدفع القارىء اليه دون أن تثيره أو تصدم تفكيره ، فاذا بالفكرة المبهمة سوية ، واذا بالرأى الذى يمضه مألوفا لا يرى فيه عوجا أو نكرا .

(١) حلية الزمن ص ٢٣

وصدق المستشرق الفرنسى « سلفستر دى ساسى » حين وصفه بأنه « جيد النقد سليم الفهم » فقد كان الطهطاوى قادرا على استجلاء ما يرى وتمثل ما يقرأ ، وما كان يضيه أن يفوت الرأى فيرجع عنه لأنه جاوز فهمه ، أو رأى فيه خطأ لم يتنكبه من قبل . أو أمرا قد يؤوده ذكره ، ففى « تخليص الابريز » يحذف من مخطوطة الكتاب عند الطبع قصة ساذجة له مع « حسن افندى الاسكندرانى »[1] وكان أحد المشرفين على تلك البعثة فى باريس ، وقد جاء ذكرها فى الباب الرابع من مقدمة المخطوطة ونصها بعد تسمية الاسكندرانى والدعاء له :

« والعادة أن كل أربعين من أمة النبى صلى الله عليه وسلم لا تخلو من رجل صالح ، ولعل صالح أربعيننا هو الحاج حسن افندى الاسكندرانى . فانه بهذه السفرة تمسك على الدين ما أمكن ، وله فى الله سبحانه وتعالى حسن ظن بنصرة الاسلام على الموسقوبية بأنفاس سلطان الاسلام المؤيد بعناية الملك المعبود ، مولانا الامام الأعظم السلطان محمود ، ومما اتفق أنها كانت تصلنا أخبار الحرب مكتوبة فى تذاكر باريز اليومية فنراها مشومة على الاسلام ، فلا يشك هذا الأفندى فى نصرة الاسلام ، فسألته عن ذلك ، فكان يقول ان الاسلام مبشر بالنصرة ، وان الله تعالى لا يخذل أحبابه وينصر أعداءه ،

---

(١) أمير البحار حسن باشا الاسكندرانى فيما بعد ، أوفد فى البعثة الاولى لدراسة علوم البحار وارتقى فى سلك البحرية فعقد له لواء القيادة على الاسطول المصرى فى حرب القرم (١٨٥٣) وغرق مع سفينته (مفتاح جهاد) سنة ١٨٥٥ فى تلك الحرب .

وانه رأى جملة منـامات ناطقة بذلك ، ورؤيا المؤمن حق ، وأعطانى فائدة لأستعملها وأقول ما يظهر لى ، وصورة هـذه الفائدة أن يقرأ الانسان بعد صلاة العشاء سورة يس مستقبلا للقبلة ثم ينظر الى السماء ، ويقول اللهم اكشف لى عما يقع فى كذا وكذا ، ثم ينام على الجانب الأيمن ، ففعلت ذلك ، ودعوت الله قائلا اللهم أرنى ما يقع للسلطان فى هذه الحرابة ، فنمت ، فرأيت خادما فى المنام يقول ما معناه : محمود افندى والى القصير سابقا الذى نزل عن مرتبة أميرالاى قد رجع فى منصبه وأنا ذاهب لأبشره بذلك . اهـ » .

« فنمت ليلا وكتبت ذلك لئلا أنساه ، وقصصته صباحا على حضرة جناب الحاج حسن المذكور فاستبشر غاية البشارة . فتواردت بعد ذلك الأنباء السارة ، وتفسير المنام سهل » .

ويرى كتّاب مقدمة الطبعة التى أصدرتها وزارة الثقافة والارشاد القومى [1] « أن رفاعة وهو يقرأ فى سنة ١٨٣٤ هذا الكلام الذى كتبه قبل انقضاء ست سنين أو سبع لاحظ ما يبدو فيه من سذاجة ورفض أن ينشره » ..

ونرى بدورنا أن الحـذف لم يكن مصـدره السذاجة ، فهناك فى يومنا هذا من المثقفين وأصحاب الفكر من لا ينكر أمثال تلك الرؤى والكرامات ، بل ان العلم لا ينكره ، فمن

---

(١) الدكتور مهدى علام والدكتور أحمد أحمد بدوى والدكتور أنور لوقا ، وقد كتبوا مقدمة الطبعة التى أصدرتها وزارة الثقافة والارشاد القومى بالاقليم المصرى لكتاب « تخليص الابريز » لمناسـبة الاحتفال بذكرى صاحب الترجمة عام ١٩٥٨

يركز تفكيره فى أمر قبل نومه تراوده أحلامه عنه بما يغلب على عقله الباطن عند نومه .

ولم يردد الطهطاوى فى هذا الكلام وهما أو يروى خبرا لتأكيد وهم أو خرافة ، وانما يقص ما جرى على علاته دون تعليق ، وخبر رؤياه صادق ، فهو صاحبها وهو راويه ، ولاينكر الانسان ما يرى الا أن يبدى عجبه منه ان كان فيه عجيب ، ونعتقد أن ما حمل الطهطاوى على حذف هذا النص ما جاء فيه من دعاء لسلطان الاسلام ونصر الله له فى وقت يشتبك فيه ولى نعمته فى حرب مع السلطان . مما يؤوده ذكره .

كما يرون أنه قد أسقط عند الطبع فى حديث رحلته من القاهرة الى الاسكندرية عبارة « غير أنه حصل لى الغم الشديد بعدم تيسر زيارتى سيدى ابراهيم الدسوقى فى القرب من دسوق » لأنه « الآن قد يرى فى التبرك بالأضرحة افراطا فى السذاجة » ، ولا نعتقد أن الرجل قد فكر فى هذا ، ولكنه — وكان مما لمسناه فى كتاباته لا يعرض لمشاعره وعواطفه الذاتية — قد رأى فيها اقحاما لمشاعره على القارىء .

وكان قد ضرب فى الفصل الثالث عشر مثلا لما لأهل باريس من حشوات ضلالية فى العلوم الحكمية « كالقول بدوران الأرض ونحوه » فلما أدرك خطأ مثله حذفه عند الطبع ، فقد بدا دوران الأرض أمرا عجبا للفتى الأزهرى فى أول رحيله الى باريس ، ولعله رأى فى القول به ما يصدم مشاعره الدينية ، فلم تكن الفكرة قد استقامت فى عقله على يقين ثابت يوفق فيه

بين المدرك والمحسوس ، وانه ليرى أنهم « يقيمون على ذلك أدلة يعسر على الانسان ردها » ولكنه رغم ذلك بقى فى حيرة منها فلا يشير اليها بالنفى أو الاثبات ، ويكتفى بحذف ما كتبه مشككا فيها ، ولكنه يبقى ما ذكره عن أحد علماء المغرب وهو « الشيخ مختار الكنتاوى بأرض أزوات بقرب بلاد تمبكتو » وقوله بدوران الأرض وأنها كرة « ولا يضر اعتقاد تحركها أو سكونها » [1] .

ولا ندرى علة حذر الطهطاوى من مناقشة هذا الرأى ، وقد أنكره فى البداية كما جاء فى مخطوطة « تخليص الابريز » ، واكتفى بحذف ما يشير الى انكاره عند طبع الكتاب ، واكتفى باثبات رأى الشيخ الكنتاوى عن كروية الأرض دون انكار أو تأييد ، ولا نعتقد أنه ظل فى شك من هذا الأمر والا لأبقى على رأيه الذى أورده فى المخطوطة ، أو « أنه وزن الأمور بعد أوبته الى مصر بميزان معاصريه ، فتحاشى ما يعتبرونه بدعة ، وتجنب أن يقف موقف « جاليليو » وأن يعيد مأساته » . فما كان الأمر يصل به فى مصر الى ما وصل اليه مع جاليليـــو فى ايطاليا ، فسلطة العلماء فى مصر لم تكن كسلطة الكنيسة فى ايطاليا ، ولم يكن مما يعنى ولى النعم أو يهمه أن تدور الأرض أو لا تدور ، أو أنها كروية أو مسطحة ، وما من شك أنه سمع ذلك ممن اتصل بهم من الأجانب ، ولا يضيره أن يسمعه من الطهطاوى ،

---

(۱) تخليص الابريز : المقالة الثانية ، الفصل الأول .

ولم يكن الرأى العام فى مصر من القوة ما يجعل له وزنا فى تقبل ذلك أو رفضه . وكان من يقرأون من أصحابه على علم بهذا الأمر، ولكنه كان يتنكب ما يقحمه فى جدل مع غير وان كان بوسعه أن يشير الى البراهين التى يستند اليها علماء الغرب فى اثبات كروية الأرض ودورانها دون نفى أو تأييد ، والناس أحرار فى تقبله أو رفضه ولا تثريب عليه ، ولكن الرجل كان دائما على حذر من أن يقحم رأيه على آراء الآخرين ، وظل على الدوام ناقلا لما يسمع أو يرى دون أن يبدى فيه رأيا الا ما رآه مخالفا للشريعة ، وكل ما كان يبغيه هو تعليم الناس وتعريفهم بأسباب الحضارة الغربية وتقدم الغرب ، فاذا تعلم الناس فانهم مدركون غدا ما يعسر عليهم ادراكه اليوم . فلم يتحرج مثلا أن يحدد موقع الاسكندرية بالنسبة لخطوط الطول والعرض فيقول انها « موضوعة فى احدى وثلاثين درجة وثلاث عشرة دقيقة من العرض ، يعنى درجة البعد عن خط الاستواء »[1] . ولم يتحرج أيضا فيما استطرد اليه من تحديد موقع باريس الى الكلام عن خطوط الطول والعرض من أن يقول : « اعلم أن علماء الهيئة قد أوضحوا بالأدلة كروية الأرض ، وانها غير صادقة التكوير ثم صنعوا على هيئتها صورة ، وسموها صورة الأرض .

« ولامكان تقسيم الأرض وتسهيل معرفتها ، توهموا فيها دوائر أنصاف نهار ودوائر متوازية ومحورا وقطبين ورسموها

---

(۱) المصدر السابق : المقالة الأولى ، الفصل الثانى .

على صورتها المصطنعة ، فمحور الكرة الأرضية هو الخط الموازى لمحور الفلك ، وطرفاه القطبان ، ويسمى أحدهما القطب الشمالى والآخر القطب الجنوبى ، ودوائر أنصاف النهار هى الدوائر التى تعبر من أحد القطبين الى الآخر ، وعلة تسميتها بذلك أنه اذا كانت الشمس فى سمت رأس محل يمر عليه هذا الخط دخل وقت الظهر بذلك المحل ، ومركز هذه الدوائر هو مركز الأرض » .

« وأما الدوائر المتوازية فهى الدوائر الواقعة أعمدة على دوائر أنصاف النهار ، وهى التى بينها وبين مركزها تواز على محور الأرض وأعظمها دائرة خط الاستواء ، وهى الدائرة العظمى المستوية البعد من القطبين ، وهى تنصف الكرة نصفين أحدهما النصف الشمالى ، والآخر النصف الجنوبى ، ثم أن دوائر أنصاف النهار ، والدوائر المتوازية كسائر الدوائر تنقسم الى ثلثمائة وستين ودرجة وكل درجة تتجزأ الى ستين دقيقة ، وكل دقيقة الى ستين ثانية ، وكل ثانية الى ستين ثالثة ، وهكذا » [1]

فلم يحجم الطهطاوى اذن عن ابداء الرأى فى كروية الأرض ودورانها فى صدد الحديث عن خطوط الطول والعرض ، ولم يكن ما حذفه عند الطبع من بعض فقرات المخطوطة عن خوف من أن يكون مصيره مصير جاليليو أو من التعرض لسخط الرأى العام ، وانما على طريقته نراه يكتفى بذكر ما رآه « علماء

(۱) المصدر السابق : المقالة الثالثة ، الفصل الاول .

الهيئة » كما اكتفى بذكر رأى الشيخ الكنتاوى دون نفى أو تأييد . وان اقترح فى هذا الصدد توحيد خط الطول الأساسى أو خط الصفر بالنسبة لما رأى من اختلافه عند الأمم فقد « اختار الأفرنج أن يجعل أصل كل قطر من الأقطار خط نصف نهارهم الأولى ببلادهم ، لينسبوا اليها ما عداها ، كما صنع الفرنساوية ، فانهم جعلوا خط نصف نهارهم الأولى فى مدينة باريس ، وبقيت أمم منهم كالفلمنك على أخذ الأطوال من جزيرة الحديد بالجزائر الخالدات » .

« وفى الواقع أن الأولى ، كما هو الظاهر ، اتخاذ مبدأ أطوال مشترك لجميع الأمم ينسب اليه ما عداه ويكون فى قطر لا عمار بعده معلوم ، أو ممتاز بمزية كمكة المشرفة »[1] .

وقد تم هذا التوحيد عندما أصبح خط « جرينتش » هو خط الطول الأساسى أو خط الصفر .

ويدل هذا على ما كان يتمتع به الرجل من « سلامة الفهم » كما قال عنه « البارون دى ساسى » .

ورأى رفاعة من حضارة الغرب ما ارتفع به الغرب على سائر الأمصار فأخذ يحث « ديار الاسلام على البحث عن العلوم البرانية والفنون والصنائع ، فان كمال ذلك ببلاد الأفرنج أمر ثابت شائع . والحق أحق أن يتبع ، ولعمر الله أننى مدة اقامتى

(١) المصدر السابق : المقالة الثالثة ، الفصل الأول .

بهذه البلاد فى حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممالك الاسـلام منـه » .

« وقد قويت شـوكة الافرنج ببراعتهم ، وتدبيرهم بل وعدلهم ومعرفتهم فى الحروب ، وتنوعهم واختراعهم فيهـا ، ولولا أن الاسلام منصور بقدرة الله سبحانه وتعـالى لكان كلاشىء ، بالنسبة لقوتهم وسوادهم وثروتهم وبراعتهم »[1] .

فالرجل يؤمن بتفوق الغرب ، ويدرك أسباب تفوقه ، ويحث بنى وطنه على تلمسه والسعى اليه ، وعلى أهل العلم « حث جميع الناس على الاشتغال بالعلوم والفنون والصنائع النافعة » . فأخذ يعلم ويبشر بالعلم ويدعو اليه ، بعد أن أدرك أن تفوق الغرب على الشرق هو فى تقدمه وتفوقه فى مضـمار العلوم والفنون والصنائع أو ما أسماها « العلوم الحكمية » .

ولم يفقد فى ايمانه بالغرب ايمـانه بالشرق ، فلم يرث من الغرب شعورا بالنقص يحمله على التنكر لمثله وتقاليده وأهله ، ولا شعورا بالاستعلاء يدفعه الى العزلة والانطواء والانفصال عن المجتمع الذى نشأ فيه . فاذا كانت « البلاد الأفرنجية قد بلغت أقصى مراتب البراعة فى العلوم الرياضية والطبيعية وما وراء الطبيعة أصولها وفروعها » واذا كانت « البلاد الاسلامية قد برعت فى العلوم الشرعية والعمل بها ، وفى العلوم العقلية ، وأهملت العلوم الحكمية بجملتها » فانها فى حاجة الى « كسب ما لا تعرفه وجلب ما تجهل صنعه » ويعترف الفرنج لنا « بأننا

---

(١) المصدر السابق : الباب الاول من المقدمة .

كنا أساتذتهم فى سائر العلوم ، وبقدمنا عليهم والفضل للمتقدم »[1] .

فشعور رفاعة بسبق أمته وبلاده فى مضمار الحضارة وانه ينتسب الى بلاد كانت « أكمل سائر البلاد تمدنا ورفاهية وتربية زاهرة زاهية » وانه من مصر « التى هى أعظم البلاد وأعمرها » وانها لو « توفرت فيها أدوات العمران لكانت سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا كما هو شائع على لسان الناس من قوامم مصر أم الدنيا » ، شعوره بكل هذا قد حماه ولا شك من مركب النقص أو مركب الاستعلاء ، فاستوى الشرق والغرب فى قلبه وعقله على وفاق هداه الى الطريق القويم لتلمس أسباب التقدم والعمران لبلاده . وهى الأخذ بعلوم الغرب وفنونه وصنائعه ، ولا سبيل الى ذلك الا بالعلم والتعليم ، وخلق جيل متنور يقود البلاد الى التقدم والارتقاء . فكان طوال حياته معلما يؤلف ويترجم ويشتغل بالتدريس . وما كان فى قدرته أن يكون أكثر من هذا ، فعرف الناس بالحضارة الأوربية وكان رائدا من رواد التمدن الأوربى دون أن يرتدى مسوح الدعاة والمصلحين ، واتسم عمله بالتجديد والاصلاح ولكنه لم يتعد نطاق العمل الذى يتولاه ، وغدا البشير بحركة الاستنارة وظئر النهضة المصرية الحديثة دون أن يجابه الحاكم أو يتحدى الرأى العام أو يسفر عن رأى يصدم مشاعر الجماهير أو يثير الناس عليه ،

---

(١) المصدر السابق : نفس الباب .

فقد كان يعرف أن مرد الأمور الى الحاكم ، وانه قادر على أن يحول بينه وبين ما يريد ، فلا يتوانى عن اثارة همته بتملق عمله والاشادة بفضله ، فالاسكندرية التى شبهها بمرسيليا وقال عنها عند مروره بها فى سفره الى باريس انها « عينة مرسيليا وانموذجها » يقول عنها بعد ذلك « ولما ذهبت اليها سنة ٦٢ وجدتها قطعة من أوربا [1] » كما يقول بصدد الحديث عن اتساع « السكك والطرق » فى مرسيليا ، « والآن صارت الاسكندريه بالهمة الخديوية بنحو ذلك » ويبدو أن تلك العبارة قد أضيفت الى الكتاب بعد ذلك . كما نراه ينوه بفضل الوالى فى هذا السبيل فيقول :

« ولهذا تنبه المتولى على بلاد مصر ـــ القاهرة ـــ أن يرجع اليها شبابها القديم ويحيى رونقها الرميم ، فمن مبدأ توليته وهو يعالج فى مداواة دائها الذى لولاه كان عضالا ، ويصلح فسادها الذى قد كاد يكون زواله محالا ، ويلتجىء اليه أرباب الفنون البارعة ، والصنائع النافعة من الافرنج ، ويغدق عليهم فائض نعمته ، حتى ان العامة بمصر وبغيرها يلومونه فى أنفسهم غاية اللوم بسبب قبوله الافرنج » .

ثم يقول :

« ولا يتأتى لانسان أن ينكر أن الفنون والصنائع الغربية بمصر قد برعت الآن ، بل قد وجدت بعد أن لم تكن ، ويرجى

---

(١) المصدر السابق : المقالة الاولى ، الفصل الأول .

بلوغها درجة كمال وفوقان ، فما أنفقه (الوالى) على ذلك كان فى محله اتفاقا ، فانظر الى الورش ، والمعامل ، والمدارس ونحوها ، وانظـــر الى ترتيب العساكر الجهـــادية من الايات ومدارس حربية ، فانه من أحسن ما صنعه ، وأحق ما يؤرخ من فعل الخيرات ، ولا يمكن ادراك ضرورية هذا النظام الا لمن رأى بلاد الافرنج ، أو شاهد الوقائع » .

« وبالجملة والتفصيل فان الوالى آماله دائما متعلقة بالعمار ...... وقد سارع الوالى فى تحسين بلاده فأحضر فيها ما أمكن احضاره من علماء الافرنج وبعث ما أمكن بعثه من مصر الى تلك البلاد ، فان علماءها أعظم من غيرهم فى العلوم الحكمية .. »[1]

ورفاعة يؤمن أن تقدم العلوم والفنون موقوف على همة الحاكم واهتمامه « فاننا كنا ــ كما يقول ــ فى زمن الخلفاء العباسيين أكمل سائر البلاد تمدنا وسبب ذلك أن الخلفاء كانوا يعينون العلماء وأرباب الفنون » ، ويشير الى أن « المــأمون ابن هارون الرشيد كان يشتغل بنفسه بعلم الفلك وهو الذى قد حرر ميل دائرة فلك البروج على دائرة الاستواء فوجده بالامتحان ثلاثا وعشرين درجة وخمسا وثلاثين دقيقــة » . فالعلوم ــ كما يستطرد فى قوله ــ لا تنتشر فى عصر الا باعانة صاحب الدولة لأهله ، وفى الأمثال الحكمية : الناس على دين ملوكهم » . ثم ينــوه ببراعة الافرنج وتدبــيرهم وعــدلهم

---

(١) المصدر السابق : الباب الأول من المقدمة .

« ومعرفتهم فى الحروب » لذلك قويت شوكتهم ، ولكنه لا يشير الى أثر الشعب عند (الأفرنج) فى هذا ، وقد عرف فى باريس أن الشعب وليس الحاكم هو مصدر القوة .

وسواء أشاد رفاعة بفضل ولى النعم (الوالى) ملقا أو وفاء لما للوالى من فضل عليه ، فقد كانت تلك شيمة عصره ، وشيمة كثير ممن جاءوا بعده من الكتاب والمؤرخين فى مصر فى التنويه بفضل الحاكم ومآثره . وقد يحفز التنويه همة الحاكم ان كان صاحب همة ، أو علاه غرورا ويحمله على الاثم ان كان جهولا .

ولكنه يعى تماما حقوق الرعية ويعلم أن « العدل أساس العمران » فيذكر فى « تدبير الدولة الفرنساوية » « أن ملك فرنسا ليس مطلق التصرف ، وأن السياسة الفرنساوية هى قانون مقيد » وأن الفرنسيين « قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد » ويذكر « كيف انقادت الحكام والرعايا لذلك ، حتى عمرت بلادهم ، وكثرت معارفهم ، وتراكم غناهم ، وارتاحت قلوبهم ، فلاتسمع فيهم من يشكو ظلما أبدا » .

ولا يفوته أن يستشهد بما قاله « العلماء والحكماء » فى هذا ، فمن « كلام بعضهم : ظلم اليتامى والأيامى مفتاح الفقر ، والحلم حجاب الآفات ، وقلوب الرعيــة خزائن ملكها ، فما أودعه اياها وجده فيها ، وقال آخر : لا سلطان الا برجال . ولا رجال الا بمال ، ولا مال الا بعمارة ، ولا عمارة إلا بعدل ، وقيل فيما يقرب من هذا المعنى : سلطان الملوك على أجسام

الرعايا لا على قلوبهم ، وقال بعضهم : أبلغ الأشياء فى تدبير المملكة تسديدها بالعدل ، وحفظها من الخلل » .

ولا شك أنه فى اهتمامه بترجمة الدستور الفرنسى — أو ما دعاه « بالشرطة » ترجمة لكلمة (La Charte) الفرنسية — قد أراد أن يبرز ما للحكم الدستورى من مزايا ومن ضمان للحرية والعدالة وتقدم البلاد . وان لم ينوه بحاجة مصر اليه ، ولكنه يتمنى فى مناسبات كثيرة أن يرى بلاد الاسلام بمثل ما رأى عليه بلاد الفرنسيين ، وان كان يسفر فى أحيان عما يضنيه تلميحا لا تصريحا فيقول ان « مدة اقامتى بباريس لم أسمع أحدا يشكو من المكوس والجبايات أبدا .... خصوصا وأصحاب الأموال فى أمان من الظلم والرشوة » وكانتا من سوءات الحكم فى مصر . كما كانت الضرائب ترهق المصريين أشد الارهاق وتحملهم على الشكوى والتذمر .

***

استوى الشرق والغرب فى عقله وقلبه على وفاق ، فاستطاع أن يوائم عقيدته وتقاليده الصالحة وعلم الغرب وما حسن من تقاليده ، فظل حفيظا على تقاليده وفروض دينه ، فكان يقوم فى باريس « بأداء الفروض والسنن أتم قيام ، ولم يأكل شيئا مما لم يذكر عليه اسم رب الأنام ، وواظب على تلاوة القرآن الشريف ، ومطالعة العلم المنيف » [1] وجمع « بين نسبة

---

(1) حلية الزمن : ص ٣٢

الأزهر الحقيقية ، واكتساب العلوم الأجنبية ، اللتين بانضمامهما الى بعضهما صار هذا الشريف الجليل نافعا لأوطانه ، رافعا ألوية العلم فى زمانه »[1] .

ولم يغب عنه ما صارت اليه بلاده من تأخر ، فيرد العلة الى الجهل وفساد العادة ، ويقرنهما بما صار اليه الفرنسيون من تقدم فى العلوم والفنون ، وفى محاسن العادات كالنظافة والصدق ووفاء الوعد ومحبة الغرباء ، وكثيرا ما يرى من تلك الطباع الحميدة ما هو شبيه « بطباع العرب » ، وان عد عليهم كثيرا من النقائص التى تخالف عرف العرب وعقيدة الاسلام ، فمن « خصالهم الرديئة قلة عفاف كثير من نسائهم ، وعدم غيرة رجالهم فيما يكون عند الاسلام من الغيرة[2] » . ومن عقائدهم القبيحة قولهم ان عقول حكمائهم وطبائعييهم أعظم من عقول الأنبياء وأذكى منها »[3] .

فلم يفتتن رفاعة بالغرب الا بقدر ما استوى فى عقله من أسباب نهضته وتقدمه ، ولم يجحد للشرق سبقه فى الارتقاء وان جحد منه تخلفه وتقاعسه وهو أولى من الغرب بالمحامد .

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٨

(٢) تخليص الابريز : المقالة الثالثة ، الفصل الثانى .

(٣) تخليص الابريز : المقالة الثالثة ، الفصل الثانى .

مجاور من طهطا

لم يكن الأزهر يوم أمه رفاعة الطهطاوى مجـاورا يطلب العلم ، خلوا من الفكر والتطلع والحركة ، ولم يكن من الجمود على ما نظن فى يومنا هذا حين تتحدث عما انتهت اليه البلاد من جهل وتخلف أيام العثمانيين ، فقد ظل موئل المصريين حين يحيف بهم حيف المماليك ، أو يستبد بهم عسف العثمانيين ، وكان لعلمائه رأى يطاع وكلمة تسمع ، يهابها العثمانيون ويخشاها المماليك ، وكان بعض العلماء من أربابه على زهـد يقيهم من الهوى ، وقناعة لا يفسدها نعيم السلطان أو جـود الأمير ، وكانوا فى الحق على شريعة الله غير هيابين ، يجبهون الأمير بما هو حق فلا يملك لهم خلفا ، واذا هو لما يرون مطيع .

وعرف نابليون لهم هذا فعمل على أن يجذبهم الى صفه ليكونوا له عونا على حكم البلاد فأخلفوا ظنه ، وكانت شرارة الثورة ضد الفرنسيين من الأزهر ، وبهم استعان محمد على على منافسـيه فرفعوه الى الولاية ولرأيهم استجاب السلطان فأقره عليها ، ثم باعد محمد على بينهم وبين الناس ، وحال بينهم وبين سياسة الدولة فهان أمرهم على يديه .

وكان الطهطاوى يوم ارتقى محمد على أريكة الباشـوية المصرية عام ١٨٠٥ ابن نيف وأربع سنوات ، فقد ولد فى طهطا

سنة ١٨٠١ ، من أسرة منسبة تنتهى أصولها الى جعفر الصادق ابن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن « البضعة الطاهرة فاطمة الزهراء بنت رسول الله سيدنا المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم »[١] .

وتنقل الفتى الصغير مع أبيه الذى ضاقت به أسباب العيش فى بلده ما بين منشأة النيدة بالقرب من أخميم وقنا وفرشوط لا يعوق أباه الترحال عن تحفيظه القرآن ، حتى آب الى بلده طهطا وفيها أتم حفظ القرآن « وحفظ جميع المتون المتداولة فى المعقول والمنقول بمساعدة أخواله من الأنصار الذين ينتهى نسبهم الى الخزرج »[٢] .

ثم وفد على القاهرة عام ١٨١٧ والتحق بالأزهر ومكث به نحو خمس سنوات ختم فيها دروسه[٣] ، وأصبح أهلا للتدريس بالأزهر .

وكان الأزهر الذى أمه الطهطاوى طالبا للعلم عام ١٨١٧ غير الأزهر الذى حَذِره نابليون يوم جاء بحملته الى مصر ، فقد حل به ماحل بشعب مصر من عنت الوالى الجديد واستئثاره بالأمر دون شريك ، فقد عزم محمد على منذ البداية على ألا يدع للمصريين يدا فى أمور دولته ، وأسر بذلك الى فرنسى

(١) انظر سلسلة النسب فى حلية الزمن وفى الخطط التوفيقية جـ ١٣ ص ٥٤ ، ومناهج الألباب : فى مطلب تقليد القاضى محمد بن أبى بكر حسام الدين المنفلوطى الطهطاوى قضاء مصر .

(٢) حلية الزمن : ص ٢١ الشيال : رفاعة رافع الطهطاوى ص ٢٢

يدعى « منجان » عاش فى مصر حينذاك وأرخ لتلك الفترة ، « فروى أنه قابل الباشا مرة عندما جاء القبطان التركى الى الاسكندرية فى عام ١٨٠٦ يحمل أمر نقله الى سلانيك ، فقال له الباشا فى أثناء ذلك الحديث : لقد ملكت مصر بالسيف ، ولن أتركها الا بالسيف . ثم جعل يبين له أنه لا يعتـــد فى مقاومة السلطان الا بجنوده وقوته ، وانه لن يدخل شعب مصر فى أمور الدولة مرة أخرى » [١] .

ولما قصده السيد عمر مكرم مع وفود أهل القاهرة عام ١٨٠٧ يســألـه أن يشرك الشعب فى الدفاع عن البـلاد أمام الانجليز ، « فهش لهم وبش ثم شكرهم على اســتعدادهم الكريم ، ولكنه أفضى اليهم بأن واجبهم فى النضال قد سقط عنهم ، بعد أن صارت قوة الدولة كفيلة بالدفاع ، وان حسبهم من الدفاع أن يبذلوا من المال ما يكفى نفقات الجنود ومؤونه الحرب » [٢] .

وبالرغم من أن انتصار رشيد على الانجليز قد تم على يد الشعب ، ولم يكن لجند محمد على يد فيه ، بل ان ما لقيه أهل رشيد من جنده كان أشد وأقسى مما لقوه من الانجليز ، فان محمد على كان قد أخرج الشعب نهائيا من حسابه وعزم على أن يأخذ الأمور بنفسه دون شريك .

وكان آخر دور للعلماء والمشايخ فى السياسة عام ١٨٠٩

---

(١) السيد عمر مكرم : ص ١٧٥ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧٠

حين دعت الحاجة محمد على الى تنظيم الضرائب وزيادتها ففزع الأهالى الى العلماء بالأزهر ووافاهم اليه السيد عمر مكرم « وتعاهدوا وتعاقدوا على الاتحاد وترك المنافرة » كما يقول الجبرتى وكتبوا عريضة احتجاجا على الباشا وامتنعوا عن مقابلته ، ولم ير الباشا الا أن يأخذهم بالحيلة ويوقع بينهم مستغلا أهواءهم وما كان فى نفس بعضهم من حسد للسيد عمر مكرم ، فقد كان هو وحده من يخشاه محمد على ويخشى نفوذه على الجماهير ، ونجح فى أن يؤلب العلماء على الزعامة الشعبية ، وانقلب الأمر من الاحتجاج على الباشا الى الاحتجاج على السيد عمر مكرم ، فقد جاءه الشيخ المهدى والشيخ الدواخلى « وهو ممتلىء بالغيظ مما حصل من الشذوذ ونقض العهد — كما يقول الجبرتى — فأخبروه أن الباشا لم يحصل منه خلاف ، وأنه قال أنا لا أرد شفاعتكم ، ولكن نفسى لا تقبل التحكم ، والواجب عليكم اذا رأيتمونى فعلت شيئا مخالفا أن تنصحونى وتتشفعوا ، فأنا لا أردكم ولا أمتنع عن قبول نصحكم ، وأما ما تفعلونه من التشنيع والاجتماع بالأزهر فهذا لا يناسب منكم ، وكأنكم تخوفوننى بهذا الاجتماع وتهييج الشرور وقيام الرعية كما كنتم تفعلون أيام المماليك ، فأنا لا أفزع من ذلك ، وان حصل من الرعية أمر ما فليس لهم عندى الا السيف والانتقام ، فقلنا له : هذا لا يكون ، ونحن لا نحب ثوران الفتن ، وانما اجتماعنا لأجل قراءة البخارى ، وندعو الله يرفع الكرب ، ثم قال : أريد أن تخبرونى عمن انتبذ

لهذا الأمر ، ومن ابتدأ بالخلف ، فغالطناه ، وأنه وعدنا بابطال الدمغة ، وتخفيف الفايض الى الربع بعد النصف ، وأنكر طلب ضريبة المال الميرى عن أطيان الأوسية والرزق من اقليم البحيرة » .

ويستطرد الجبرتى فيذكر فشل الباشا فى استمالة السيد عمر مكرم ، ويكشف عن تفاق العلماء ممن نجح محمد على فى أن يستثير فيهم غريزة الطمع أو يستغل فيهم غيرتهم من السيد عمر مكرم وحسدهم له ويشير الى « نقضهم للعهد والأيمان » .

وانتهى الأمر بعزل السيد عمر مكرم من نقابة الأشراف ونفيه الى دمياط وخلع منصبه على الشيخ السادات أحد الضالعين فى المؤامرة .

وتخلص محمد على من الزعامة الشعبية ، وقضى فى الوقت نفسه على ما كان للعلماء من نفوذ وهيبة فى عيون الناس ، ولم يعد الأزهر مثابة للناس يلوذون به كلما حلت بهم ضائقة أو يفزعون الى شيوخه كلما ضاقوا بظلم السلطان .

وكان هذا الأزهر هو الذى جاءه الطهطاوى بعد ثمان سنوات من تلك الأحداث ، ولكن هذا الأزهر بقى ينطوى على اثارة من العلم والفضل وجد فيها الطهطاوى أكرم نداء لقلبه وعقله ، فلم يكن غريبا على الأزهر ، اتصل به وجدانه قبل أن يتصل به عقله وقبل أن يؤمه مجاورا ، فمن خؤولته من كان « من العلم بمكانة علية ، كخاله الشيخ عبد الصمد الأنصارى والد الشيخ عبد العزيز أبى الحسن الذى نظم متن المنهج

والقطر ، وله من التخميسات الفائقة لغالب ديوان البرعى وتوفى وله من العمر ثمان وعشرون سنة فى السنة التى ولد فيها صاحب الترجمة » [1] وقد نوه بعلمهما على مبارك فى خططه [2] ، ومنهم أيضا خاله الشيخ فراج الأنصارى « العـالم الربانى الورع الزاهد » كما يصفه على مبارك ، وكان « قد تلقى فى الأزهر شرح الرملى فى مذهب الامام الشافعى سبع مرات وكتب عليه تقريرات نفيسة » [3] ، وخاله « العلامة الشيخ محمد الأنصارى المتوفى سنة اثنتين وخمسين ومائتين وألف وكان أمين الفتوى لمشيخة الأزهر فى عهد الشيخ حسن العطـار » [4] ، وقد بنى الطهطاوى بابنته بعد عودته من فرنسا ومنها كان أولاده .

وقد كفله أخواله هؤلاء بعد وفاة أبيـه ، وعليهم حضر « بعض الكتب فقها ونحوا » [5] ، و « حفظ جميـع المتون المتداولة فى المعقول والمنقول » [6] . فلما أم الأزهر لم يكن هناك ما يعسر عليه ، فاستطاع بعد السنة الأولى من دراسته ــ ولم يكن قد حضر منها الا نصفها اذ وفد اليـه فى منتصف العام الدراسى ــ أن يلقى دروسا فى « صغرى الصغرى للسنوسى » بالجامع اليوسفى بمدينة ملوى ، وفى طهطا حين عودته اليهـا حينذاك .

(١) حلية الزمن : ص ٢٢
(٢) الخطط : جـ ١٣ ص ٥٢
(٣) حلية الزمن : ص ٢٢
(٤) حلية الزمن : ص ٢٢
(٥) الخطط : جـ ١٣ ص ٥٣
(٦) حلية الزمن : ص ٢١

فلما عاد الى الأزهر فى العام التالى انكب على دروسه مثابرا ، فدرس « صحيح البخارى » على الشيخ الفضالى ، و « جمع الجوامع » فى الأصول و « مشارق الأنوار » فى الحديث على الشيخ حسن القويسنى ، وهو الذى تولى مشيخة الأزهر بعد الشيخ حسن العطار ، وحضر « الأشمونى » على الشيخ أحمد الدمهوجى ، وقد آلت اليه مشيخة الأزهر بعد وفاة الشيخ محمد العروسى ، و « الحكم » لابن عطاء الله السكندرى على الشيخ النجارى ، ويصفه « صالح مجدى » بأنه كان « علامة عصره وبركة وقته » ، كما تلقى « تفسير الجلالين » على الشيخ عبد الغنى الدمياطى .

وممن حضر عليهم أيضا الشيخ « ابراهيم البيجورى » والشيخ « محمد حبيش » شيخ السادة المالكية ، والشيخ « الدمنهورى » . وكانوا جميعا من أعلام عصرهم .

وأكثر من لازمه من هؤلاء « الشيخ حسن العطار » [1] الذى تولى مشيخة الأزهر بعد وفاة الشيخ الدمهوجى من سنة ١٨٣١ الى سنة ١٨٣٥ فى عهد محمد على .

ولم يكن لهؤلاء العلماء شأن بالسياسة بعد أن منعهم منها محمد على فنجوا من مغارمها ومغانمها وعكفوا على العلم لا عمل لهم غيره ، وان كان لبعضهم رأى فيما يمس العقيدة مما لا يحب الوالى أن يجابه به الجماهير وحده ان دعت الحاجة ، والا فلا شأن لهم فيما يراه ، وكان من هذا ما أشار به عليه الشيخ

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٣ ، ٢٤

حسن العطار فى أن يكون للمبعوثين اماما يرعى شئون دينهم

وكان العطـــار من بين هؤلاء العلماء الذين عكفوا على المعقول والمنقول من علوم الأزهر لا يعدونها الى غيرها ، ظاهرة فريدة ، لم يكتف بما جروا عليه ، بل عداهم الى النظر فى العلوم الأخرى « حتى فى العلوم الجغرافية ــ كما يقول الطهطاوى ــ فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقـــويم البلدان لاسماعيل أبى الفداء سلطان حماه المشهور أيضا بالملك المؤيد ، وللشيخ المذكور هوامش أيضا وجدتها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع دائما على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية مع غاية الديانة والصيانة ، وله بعض تآليف فى الطب وغـــيره زيادة عن تآليفه المشهورة » [1] .

ويقول على مبارك فى ترجمته له انه : « اشتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها ... واتصل بناس من الفرلساوية فكان يستفيد منهم الفنـــون المستعملة فى بلادهم ويفيـــدهم اللغة العربية ، ويقول ان بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها ، ويتعجب مما وصلت اليه تلك الأمة من المعارف والعلوم وكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطـــرق الاستفادة » [2] .

---

(1) مناهج الالباب : مطلب أنه ينبغى للعلماء الشرعيين ان يتشبثوا أيضا بمعرفة المعارف البشرية كالعلوم الحكمية العملية .

(2) الخطط جـ ٤ ص ٣٨

وكان العطار جواب آفاق محبا للأسفار فساح فى البلاد العربية وأقام فى بعضها زمنا وارتحل الى تركيا ولبث بها حينا ، فأفاده الترحال قدرة على التأمل كما أفاده اتصاله بعلماء الحملة الفرنسية معرفة بسر نهضتهم وقوتهم ، فما ونى عن لوم الأزهريين على جمودهم ونقد كتبهم التى حبسوا أنفسهم فيها فيقول : « ان من تأمل فى علمائنا السابقين يجد أنهم كانوا مع رسوخ قدمهم فى العلوم الشرعية ، لهم اطلاع عظيم على غيرها من العلوم والكتب التى ألفت فيها ، حتى كتب المخالفين فى العقائد والفروع ، وأعجب من ذلك تجاوزهم الى النظر فى كتب غير أهل الاسلام من التوراة وغيرها من الكتب السماوية واليهودية والنصرانية ثم هم — مع ذلك — ما أخلوا فى تثقيف ألسنتهم برقائق الأشعار ولطائف المحاضرات ، ومن نظر فى ذلك وفيما انتهى اليه الحال فى زمن وقعنا فيه ، علم أنا منهم بمنزلة عامة أهل زمانهم ، فان قصارى أمرنا النقل عنهم دون أن نخترع شيئا من عندنا ، وقد اقتصرنا على النظر فى كتب محصورة ، ألفها المتأخرون المستمدون من كلامهم ، نكررها طول العمر ، ولا تطمح نفوسنا الى النظر فى غيرها ، حتى كأن العلم فيها ، فاذا ورد علينا سؤال من علم الكلام لا نجده فيها ، تخلصنا بأن هذا كلام الفلاسفة ، أو مسألة أصولية قلنا لم نرها فى « جمع الجوامع » فلا أصل لها ، أو نكتة أدبية قلنا هذا من علوم أهل البطالة ، وهكذا ، فصار العذر أقبح من الذنب وحالتنا الآن كما قال ابن الجوزى فى مجلس وعظه ببغداد :

ما فى الديار أخو وجــد نطارحه

حديث نجــد ولا خل نجــاريه

وهذه نفثة مصدور ، فنسأل الله السلامة واللطف » [١] .

وبعد ذلك بسنوات نرى الطهطاوى فى « مناهج الألباب » يحث أصحاب العلوم الشرعية على أن « يتشبثوا أيضا بمعرفة المعارف البشرية كالعلوم الحكمية العملية » فيقول ان محمد على قد « جدد دروس العلوم بعد اندراسها وأوجدت بعد العــدم رؤساء العلماء والفضلاء نتيجة قيامها ... غير أنه لم يستطع الى الآن أن يعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور ولم يجذب طلابه الى تكميل عقولهم بالعلوم الحكمية التى كبير نفعها فى الوطن ليس ينكر » ثم يستطرد فينوه عا لاتقانهم تلك العلوم الى جانب العلوم الشرعية من خير يعم الوطن ويعود عليهم بالنفع ويقول ان « هذه العلوم الحكمية العملية التى يظهر الآن أنها أجنبية هى علوم اسلامية نقلهــا الأجانب الى لغاتهم من الكتب العربية » ويذكر بعض من جمعوا بين الناحيتين من علماء الأزهر السابقين .

ولم يكن غريبا أن يألف هذا المجاور الذى يطلب العلم فى الأزهر شيخه المستنير فيتصل الود بينهما ، ويؤثر الشيخ فتاه عا لم يؤثر به غيره من فتيان الأزهر . ويفتح له قلبــه وداره فيؤمها « ليتلقى عنه علوما أخرى كالتاريخ والجغرافيا والأدب ،

(١) عبد الله فكرى ص ١١ : عدد ٤٢ من سلسلة أعلام العرب .

وطالما كان يسمعه من رائق أشعاره وفائق نثره ما يستدل به شيخه على أنه وحيد عصره وفريد مصره ، وأنه صاحب القريحة الوقادة ، والفكرة النقادة »[1] .

وعرف الفتى المجاور باقباله على الدرس والتحصيل ومحاكاة العلماء فى التأليف « فنظم أرجوزة فى التوحيد بعد مدة يسيرة من انتظامه فى سلك طلبة الأزهر ، ولما قرأها على الأستاد الفضالى وعده بأن يشرحها شرحا لطيفا سهل التناول على الخاص والعام »[2] .

ولم يقعده عن طلب العلم عسر أو ضيق ، فقد كانت أمه تمده بما يعينه من مال على التفرغ للعلم مما تبيعه من حلى أو عقار « فلم تزل درجة تحصيله للعلم ـ كما يقول صالح مجدى ـ فى ازدياد ، حتى بلغ المراد فى جميع ما أراد ، واشتهر أمره وعلا فى الجامع الأزهر قدره ، حتى قيل ان كثيرا من الطلبة فى زمن حضورهم معه كانوا يرجعون اليه فى حل الغوامض ، وكان أشياخه يثقون بفهمه ، ويركنون اليه ، لجودة قريحته وسلامة ذوقه » .

ولعله كان يستعين على حياته بالعمل فى أوقات الدرس ، فقد « كان فى أثناء مجاورته بالأزهر يعبر النيل ليقرأ بالجانب الغربى منه درسا لجناب حسين بك نجل المرحوم طبوز أوغلو ، ولم يمنعه ذلك عن الملازمة للأزهر ، وهذا فضلا عن تقريره

---

(١) حلية الزمن : ص ٢٥
(٢) المصدر السابق : ص ٢٥

مدرسا بالمدرسة التى أنشأها بداره محمد لاز أوغلو للمماليك وغيرهم »[1] .

ولما أتم الفتى دروسه وأجازه شيوخه على طريقة الأزهر فى تلك الأيام[2] ، تصدى للتدريس فيه ، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره ، ونال من العلم أقصى ما يمكن أن يناله راغب فى العلم من أبناء جيله فى مصر حينذاك .

وأصبح المجاور شيخا يتصدر للتدريس فى الأزهر ، يقبل الطلاب على دروسه فى الحديث والمنطق والبيان والبديع والعروض « وما منهم الا من استفاد منه » كما يقول صالح مجدى ، لدقته وحسن أسلوبه وسهولة تعبيره ، وكان ممن تلقى العلم عليه وأخذ عنه « الفقيه المدرس المدقق والعالم المحدث المحقق ، العلامة الشيخ العزب مفتى المدينة المنورة »[3].

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٩

(٢) لم تكن هناك امتحانات تعقد لطلاب الأزهر على ما نألف فى أيامنا هذه ، ولم يكن ما يلقيه الأستاذ من دروس موضوعا للامتحان ولكن الطالب فى الأزهر حين يأنس من نفسه القدرة على التصدر للعلم ، بعد أن يتلقاه على شيوخه لمدة تطول أو تقصر حسب استعداده ، يعلن ذلك على الطلاب والشيوخ ، فيعقد له مجلس يختبر فيه الأساتذة مدى تحصيله وتدور فيها مناقشات عديدة شاملة بينه وبينهم يطول فيها السؤال والجواب للتأكد من سلامة تحصيله فاذا ما أثبت الطالب جدارته واستحقاقه للتصدر للعلم ، أجاز له الشيوخ ذلك ، وأصبح أهلا للتدريس بالأزهر .

وكان الطلاب يجتمعون للدرس على شكل حلقات حول أستادهم الذى يستقبل القبلة يتحلق الطلاب حوله لكل مكانه الذى يلزمه ، فاذا خلا المكان عرف الشيخ أن صاحبه غائب ، ولكل شيخ فى العادة عمود من أعمدة الأزهر يتخذ مكانه الى جواره ، وكان الطلاب يعرفون « بالمجاورين » لمجاورتهم للأزهر ، والأساتذة « بالشيوخ أو المشايخ » .

انظر تاريخ الاصلاح فى الأزهر لعبد المتعال الصعيدى ، وعبد الله فكرى لمحمد عبد الغنى حسن .

(٣) حلية الزمن ص ٢٧ ، ٢٨

وشهد له خاله الشيخ فراج الأنصارى وكان قد استمع اليه حين ابتدأ فى قراءة « المعجم الوجيز فىأحاديث الرسول العزيز » فقال له : « لله درك يا ابن الأخت لقــد بلغت فى العلم درجة الأعلام ، ونلت بمساعدة اللغة مرتبة تقف دون وصفها الأقلام»[1]

وبقى رفاعة يلقى دروسه فى الأزهر لعامين ، ثم عين عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٤) واعظا واماما بالجيش ، فى آلاى « حسن بك المناسترلى ثم فى آلاى « أحمد بك المنكلى » [2] .

وفى سنة ١٨٢٦ اختير اماما للمبعوثين الذين أوفدهم محمد على للدراسة والتخصص فى العلوم الحديثة .

وبدأ الفتى الأزهرى طورا جديدا من حياته ، أعده للدور العظيم الذى قام به فى تاريخ مصر ، فلولا هذه الفرصة السانحه لمضت به الحياة كما مضت بالآخرين ممن درسوا فى الأزهر غفلا لا يحفل التاريخ بهم ، فالبذرة القوية لا تنمو الا فى أرض جيدة فاذا ألقيت فى البوار لم تنبت ولم تثمر .

---

(٣) حلية الزمن ص ٢٧ ، ٢٨
(٤) الرافعى : عصر محمد على ص ٢٨٥

أزهري في باريس

وكان من الممكن أن تمضى الحياة بالفتى الأزهرى فى باريس كما تمضى مع غيره ممن يذهبون الى باريس أو غير باريس فى مهمة أو عمل ، فيؤدون المهمة أو يقومون بالعمل ولا يفيدون من الرحيل أو الحياة الجديدة شيئا . فقد ذهب رفاعة الى باريس اماما للمبعوثين الذين أوفدهم الوالى الطموح « الى فرنسا لدرس مختلف فروع الادارة والفنون والعلوم »[1] ولم « يكن مطلوبا من امام البعثة أن يتعلم علوم الفرنسيس وأنظمتهم ، بل يكفيه أن يؤدى وظيفة الامامة لأعضاء البعثة وما اليها من الوعظ والارشاد »[2] .

ولكن البذرة القوية تنمو فى الأرض الجيدة — كما قلنا — فأدرك الطهطاوى ما لم يدركه رفاقه من الأئمة الآخرين ، فقد كان معه ثلاثة منهم « لم تتحرك نفس أحد منهم الى الاغتراف من مناهل العلم فى فرنسا ولم يتجاوزوا حدود الوظيفة »[3] . بل لقد أدرك ما لم يدركه المبعوثون أنفسهم من بعد الصيت وحفاوة التاريخ .

---

(١) عمر طوسون : البعثات العلمية ص ١٢
(٢) الرافعى : عصر محمد على ص ٣٨٦
(٣) المرجع السابق .

والبذرة القوية لا تنبت ما لم تجد اليد التي تتعهدها وترعاها ، وقد وجد رفاعة فى أستاذه الشيخ حسن العطار اليد التى امتدت اليه لتدفع به الى تلك الحياة الجديدة التى أثمرت أبدع الثمر على يد تلميذه النابغ ، فقد رشحه اماما لبعثة الطلاب الكبرى الى باريس عام ١٨٢٦ ، فواتته فرصة العمر فلم يدعها تمر وأفاد منها أعظم الفائدة ، وأصبح الامام دارسا هو الآخر ، ولم يضع وقتا بل أخذ فى تعلم اللغة الفرنسية منذ وضع قدمه فى الباخرة التى تقله مع أعضاء البعثة الى فرنسا .

وذهب الفتى الى شيخه يودعه ويشكره ، ويسأله النصح والتوجيه ، فيباركه الشيخ ويدعو له ، ويشير عليه أن « ينبه على ما يقع فى هذه السفرة ، وعلى ما يراه وما يصادفه من الأمور الغريبة والأشياء العجيبة ، وأن يقيده ليكون نافعا فى كشف القناع عن محيا هذه البقاع التى يقال فيها : انها عرائس الأقطار ، وليبقى دليلا يهتدى به الى السفر اليها طلاب الأسفار ، خصوصا وانه من أول الزمن الى الآن لم يظهر باللغة العربية — على حسب ظنى — شىء فى تاريخ مدينة باريس ، كرسى مملكة الفرنسيس ولا فى تعريف أحوالها وأحوال أهلها »[1] . فان الشيخ كما يقول : «مولع بسماع عجائب الأخبار والاطلاع على غرائب الآثار » .

ولكن هل يقف جهد الفتى على تدوين ما يرى من غرائب الأمور وعجائب الأشياء ، وهل كان أمل الشيخ فيه أن يقص

(١) تخليص الابريز : فاتحة الكتاب .

على هواة الأسفار ما يقع عليه علّهم يهتدون به ويكون لهم دليلا فيما ينشدون من أسفار ؟

لم يقف جهد الفتى على رواية ما رآه ، وما كان الشيخ — على ما نعتقد — الا مثيرا فى الفتى نزعة البحث والتأمل والاستقراء ، عله يفيد منها فيفيد بها بعد أوبته ، أو عل التأمل يحمله على الدراسة والاغتراف من علم الغرب ، فطالما نبه الشيخ الى قعود الأزهريين عن طلب العلم فيما لا يتصل « بالعلوم الشرعية » . ولطالما أسمع فتاه دروسا فى التاريخ والجغرافية والأدب ، واستمع الى شعره ونثره . ولعل هواية الفتى للتاريخ والجغرافية والأدب كانت عن طريق شيخه العطار .

وفى ربيع عام ١٨٢٦ حملته السفينة الحربية الفرنسيه « لا ترويت » فيمن حملت من مبعوثى محمد على الى فرنسا ، ومنذ اللحظة الأولى حدد طريقه وعرف منحاه وأدرك غايته ، فاذا كانت الفرصة قد واتته للسفر « الى تلك البلاد ، وعلماؤها أعظم من غيرهم فى العلوم الحكمية » فان عليه أن يطلبها ، وفى الحديث : « الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو فى أهل الشرك » و « اطلب العلم ولو فى الصين » فاذا « أمن الانسان على دينه فلا ضرر فى السفر ، خصوصا لمصلحة مثل هذه المصلحة » . وعليه أن يعمل على « نشر هذه العلوم والفنون » و « أن يحث جميع الناس على الاشتغال » بها [1] .

---

(١) المصدر السابق : الباب الاول من المقدمة .

ولا يفوته أن يعدد تلك العلوم والفنون ، فيفرد لها الباب الثانى من مقدمة « تخليص الابريز » ولا نراه قد أغفل منها شيئا وهى ما ذهب فى طلبه المبعوثون ، فهذه العلوم « المعروفة معرفة تامة لهؤلاء الافرنج ناقصة أو مجهولة بالكلية عندنا ، ومن جهل الشيء فهو مفتقر لمن أتقن ذلك الشيء » .

وأقبل الفتى على الدراسة ، وبدأ يتعلم اللغة الفرنسية « واتخذ له بعد وصوله الى باريس معلما خاصا على نفقته » [١] .

وكان التقاء الشرق والغرب على يديه لأول مرة على وفاق ، وكان اللقاء من قبل عنيفا يحمل الشرق على الخوف والحذر من هذا الغرب الذى يطالعه بالحديد والنار ، ويطل عليه دائما بالغدر والطمع ، فمهما يكن فى الغرب من سوء فان به من العلم والمعرفة ما نحن فى حاجة اليه ، وهو ما وعاه رفاعة تماما ، وحدد له طريقه وغايته ، فكان عليه أن ينقل الى الشرق « ما لا يعرفه » وأن « يجلب اليه ما يجهل صنعه » .

ولعل فى هذا ما يفسر لنا اهتمامه بالترجمة واقباله عليها والعناية بها عناية حملته على اقتراح انشاء « مدرسة الألسن » ، فالترجمة هى دعامة اليقظة والنهوض للأمم التى فاتها فضل السبق ، وهى فى سبيلها لادراك ركب الحضارة والتقدم .

ولم يكن رفاعة الا ناقلا أو مترجما لآثار الغرب يبشر بها ويحث الناس على الاقبال عليها وتعلمها ، فكان رائد نهضة

---

(٢) الخطط جـ ١٣ ص ٥٤

وامام يقظة أخذت تدب فى أعطاف الشرق النائم ليصحو على دنيا جديدة وعالم غفل عنه طويلا .

وكان للفتى ميل الى التاريخ والجغرافية منذ كان فى الأزهر طالبا ، ولكنه الآن يقبل على اتقان اللغة الفرنسية لا يعنيه أن يجيد نطقها كما يعنيه أن يجيد ترجمتها الى لسانه العربى ، فلم يحفل « بحسن التلفظ بها — كما يقول صالح مجدى — اما لشروعه فى تحصيلها وهو كبير ، واما لانشغاله عن تهذيب نطقه بها بالانهماك على الترجمة منها الى اللغة العربية » وان كنا نرجح الرأى الأخير ، فقد كان الطهطاوى على عجالة من أمره ، وما كان يبغى من تعلم اللغة الفرنسية الا أن ينقل الى قومه علومهم وفنونهم ، كما شغلته القراءة عن الاستماع ، فما كان يضيع وقتا ليقرأ ، وما كان يسعفه النهار فيقضى الليل ساهرا مكبا على القراءة والترجمة حتى أصيبت عينه اليسرى بالكلال ، ونصحه الطبيب بالراحة والامتناع عن القراءة ليلا فما سمع للطبيب وما انتهى عن القراءة بالليل فضلا عن النهار ، خوفا من أن يعوقه التوقف عن التقدم[1] .

كان يقرأ كثيرا ويقوم بترجمة بعض ما يقرأ ، فاذا عدنا الى ما دونه عن قراءاته فى باريس وما شغل نفسه بترجمته منها لقلنا انه لم يكن لديه وقت آخر لغير القراءة والترجمة ، وان القراءة والترجمة عاقتاه عن الاستماع الذى تجود به لغته

(١) تخليص الابريز : المقالة الرابعة ، الفصل السادس .

ويحسن به نطقه ، وانه ليقول انه ترجم فى باريس « اثنى عشر كتابا بعضها كتب كاملة وبعضها نبذات صغيرة الحجم » .

ويبدو أنه كان قليل الاتصـــال بالناس الا ما وصل العلم والدرس بينه وبينهم والا لأحسن نطق الفرنسية ، ويعنى هذا انه لم يندمج فى الوسط الباريسى اندماج الطبع والتطبع وان ألم بحياة الفرنسيين وطبائعهم ، فلقدرته على الملاحظة والتأمل والرؤيا الصادقة من اللمحة الخاطفة أو النظرة العابرة لأهل باريس عامة ، فلم يكن حكمه على الفرنسيين صادقا الا من خلال نظرته للباريسيين ، حتى أخذ عليه «سلفستر دى ساسى» أنه « ربما حكم على سائر أهل فرنسا بما لا يحكم به الا على أهل باريس والمدن الكبيرة » .

ولعل الكبابه على الدرس والتحصيل والقراءة والترجمة قد شغل كل وقته فلم يجد منه فسحة للسياحة والتجوال فى فرنسا أو أوربا ، ففى السنوات الخمس التى قضاها بعيدا عن مصر ، لم ير غير باريس وبضـــعة أسابيع فى مرســيليا منها ثمانية عشر يوما فى « الكرنتينة » لا يبرحها ورفاقه الى المدينة ، ولا نعرف أنه فكر فى السفر الى المدن الفرنسية الأخرى أو التجوال فى الريف الفرنسى ، فظلت رؤياه قاصرة عن الالمام بحياة الفرنسيين ، وظل هو نفســه على ما نظن بعيـــدا عن الانلماج فى الحياة الباريسية ، وبقيت نظرته بعيدة عن العمق ، وكانت مشاهداته أقرب الى التعميم منهـــا الى التخصيص ، فيصف ما يقع عليه بصره وما يصادفه من ســلوك عام وكأنه

يضع دليلا للسياحة ، ويغفل أن يتحدث عن مشاعره واحساساته الا خطرات عابرة يقرن فيها ما يرى من تقدم الى ما تعاليه بلاد الاسلام من تخلف يعتذر عنه بسبق المسلمين فى ميدان الحضارة والفضل « للمتقدم أو ليس أن المتقدم يغترف من فضالته ويهتدى بدلالته » [1] ، فاذا عرض لمصر أشاد بفضل الوالى فلا ينكر انسان « أن الفنون والصنائع الغربية بمصر قد برعت الآن بل وقد وجدت بعد أن لم تكن ، ويرجى بلوغها درجة كمال وفوقان ، فما أنفقه (الوالى) على ذلك كان فى محله اتفاقا ، فانظر الى الورش والمعامل والمدارس ونحوها وانظر الى ترتيب أمر العساكر الجهادية من آلايات ومدارس حربية فانه من أحسن ما صنعه ، وأحق ما يؤرخ من فعل الخيرات ، ولا يمكن ادراك ضرورية هذا النظام الا لمن رأى بلاد الافرنج ، أو شاهد الوقائع » [2] .

وتكتمل صورة الكتاب بما يجمله فيه من قراءات ومعارف أدركها فى الأزهر ، أو عرفها مما قرأه أو اطلع عليه فى باريس ، فيستشهد بأحداث التاريخ الاسلامى ، ومأثور الشعر السائد فى عصره ، الى جانب ما عرفه من تاريخ الأمم الأوربية وعاداتها وأحوال العالم ونظم الحكم الفرنسى ومظاهر العدل عند الفرنسيين يزيدها ايضاحا بما يترجمه منها ، فنراه يترجم

(١) المصدر السابق : الباب الاول من المقدمة .
(٢) المصدر السابق : نفس الباب .

الدستور الفرنسى ، ويترجم نصيحة لطبيب حتى ينتفع بها الناس فى مصر [١] .

ولكن باريس هى التى وصلت ما بينه وبين الغرب ، وهى التى كشفت له عن تقدم الحضارة الغربية وأعطته سر هـذا التقدم ومفتاحه : العلوم ، والفنون والصناعات ، لو أخذت بلاده بها لغدت « سلطان المدن ورئيسة بلاد الدنيا » ، أليست هى أم الدنيا كما يقول :

« ولئن حلفـت بأن مصر كجنـة
وقطـوفها للفـائزين دوانى
والنيـل كوثرها الشهى شرابه
لأبر كل البر فى ايمـانى »

وهى التى دفعته لأن يقدم لبلاده ذخيرة علمه وتجربته فى تلك البلاد النائية لينتفع بها أهله ومواطنوه ، فحددت بذلك طريقه ومنهاجه فى الحياة ، فغدا يبشر بالتقدم ويرشد الناس الى سبله ويرود بهم مناهله ، فكان التأليف عنده ثمرة العلم والتجربة يقدمها لهم فى كتاب أو مقال علهم بها ينتفعون ، بل لا بد لهم من أن ينتفعوا بها اذا أرادوا صلاح حالهم ، وكانت الترجمة عنده وسيلة يقدم بها لقومه ما غاب عنهم وما غفلوا عن ادراكه حتى يتعلموا ويكون العلم هدى تقدمهم وارتقائهم .

ولم يتوان ــ حتى يكون أهلا لتلك الرسالة التى غدت

---

(١) المصدر السابق : الفصل التاسع فى الكلام عن اعتناء باريس بالعلوم الطبية .

أمل حياته — عن الالمام بكل ما يمكن أن يلم به من معارف وما يمكن أن يحيط به من علوم الغرب وفنونه ، فنراه يقبـل على تعلم اللغة الفرنسية وهى مفتاحه الى الأبواب المغلقة من علوم الغرب ، فبعد أيام قليلة من وصوله الى مرسيليا يبدأ فى « التهجى والقراءة » وبعد أربعين يوما يكون قد تعلم الحروف والتهجى ، وفى باريس يعود مرة ثانية الى حروف الهجاء وبعد شهر يبدأ فى قراءة « أجرومية تومند » ، وتأخذ منـه تلك الدراسة ثلاث سنوات كما يقول .

وكان أعضاء البعثة يقيمون معا فى بيت واحد خلال السنة الأولى من اقامتهم بباريس ويتلقون الدروس سويا ، ويقـول رفاعة : « اننا بعد ذلك تفرقنا فى مكاتب متعددة ، كل اثنين أو ثلاثة أو واحد منا فى مكتب مع أولاد الفرنساوية ، أو فى بيت مخصوص عند معلم مخصوص ، بقدر معلوم من الدراهم ».

واستقل رفاعة بدراسته فقرأ « مع « مسـيو شواليه » أجرومية أخرى ، ومع معلم آخر يسمى (لمونرى) أجروميتين ، ونراه يعدد أنواع قراءاته ويذكر موادها وأسماء مؤلفيها ، من التاريخ الى الحساب والهندسة والجغرافية وغير ذلك من كتب الأدب ودواوين الشعر الفرنسى والسياسة ، تارة وحده وتارة مع معلمه « مسيو شواليه » ، كما يذكر أنه قرأ « روح الشرائع لمنتسكيو » ويقول انه « يلقب عندهم بابن خلدون الافرنجى » كما أن ابن خلدون يقال له عنـدهم (منتسكيو الشرق) أى (منتسكيو الاسلام) » وقرأ لروسـو كتابا

يسمى « عقد التأنس والاجتماع الانسانى » ينوه به ويقول انه « عظيم فى معناه » وهو ما نعرفه فى الترجمة السائدة « بالعقد الاجتماعى » .

وتلك قراءات موسوعية بعيدة عن التخصص ولكنها ذخيرة الثقافة العامة ومعوان لمن يحترف الترجمة ويجعلها ميدان تخصصه كرفاعة ، ولم تكن تلك الثقافة الموسوعية غريبه على الفكر العربى ، فقد كان جل علماء العرب ومفكريهم موسوعات حافلة بشتى أنواع المعرفة ، وطالما خاضوا كالجاحظ فى صنوف من العلم عديدة ، حتى من تخصص منهم وبرز فى علم من العلوم كان له بالعلوم الأخرى المام واسع ، وظل هذا طابع الفكر الأوربى حتى نهاية القرن التاسع عشر .

ولعل رفاعة حين أخذ بهذه الدراسة الموسوعية كان يبغى أن يلم بكل ما تحتاجه بلده منها ، الا أننا نراه فى ميدان التأليف يكاد يختص التاريخ بكل ذاته ، أما فى ميدان الترجمة فيقطف من كل الثمار ما فيه نفع لمواطنيه من التاريخ الى الجغرافية لى الهندسة والطب وكل ما هوته نفسه أو كلف بترجمته حين عاد الى مصر .

وفى الترجمة كان امتحانه الأخير ، فقد جمع له « مسيو جومار » ــ كما يقول ــ مجلسا فيه عدة أناس مشهورين ، ومن جملتهم وزير التعليمات الموسقوبى رئيس الامتحان وكان القصد بهذا المجلس معرفة قوة الفقير فى صناعة الترجمة التى اشتغلت بها مدة مكثى فى فرنسا » .

« وصورة ما تحصل من الامتحان وكتبه الفرنساوية فى وقائع العلوم ما نصه :

« وصور التلميـذ رفاعة أنه قرىء فى المجلس دفتران : الدفتر الأول يشتمل على تعديل اثنتى عشرة ترجمة من اللغة الفرنساوية الى العربية ترجمها المذكور منذ سنة وهذه أسماؤها :

« الأول : نبذة فى تاريخ الاسكندر الأكبر ، مأخوذة من تاريخ القدماء ، الثانى : كتاب أصول المعادن ، الثالث : رزنامة سنة ١٢٤٤ من الهجرة ، ألفه (مسيو جومار) لاستعمال مصر والشام ، متضمنا لشذرات علمية وتدبيرية . الرابع : كتاب دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدهم ، الخامس : مقدمة جغرافية طبيعية على (مسيو هنبلض) ، السادس : قطعة من كتاب ملطبرون فى الجغرافية ، السابع : ثلاث مقالات من كتاب (لجندر) فى علم الهندسة ، الثامن : نبذة فى علم هيئة الدنيا ، التاسع : قطعة من علميات ضابطان عظام [1] ، العاشر : أصول الحقوق الطبيعية التى تعتبرها الافرنج أصلا لأحكامهم ، الحادى عشر : نبذة فى (الميثولوجيا) يعنى جاهلية اليونان وخرافاتهم ، الثانى عشر : نبذة فى علم سياسات الصحة » .

« الدفتر الثانى يشتمل على رحلته وذكر سفره ... الخ » .

الى أن يقول :

---

(١) هكذا فى الأصل وقد أوردها الشيال « قطعة من عمليات رؤساء ضباط العسكرية » .

« فتفرق أهـــل المجلس جازمين بتقدم التلميـــذ المذكور ومجمعين على أنه يمكنه أن ينفع فى دولته ، بأن يترجم الكتب المهمة المحتاج اليها فى نشر العـــلوم والمرغوب فى تكثيرها فى البلاد المتمدنة » الخ[1] .

ويتناول رفاعة ما أداه من امتحانات قبل هـــذا الامتحان الأخير فيقول : ان الامتحان الأول «كان أغلبه ومداره على اللغة الفرنساوية » ويذكر كيف أجازه مسيو جومار على تفـــوقه باهدائه « كتابا يسمى (رحلة انخرسيس فى بلاد اليـــونان) سبعة مجـــلدات جيدة التجليد ممـــوهة بالذهب » ، ثم كان الامتحان الثانى وكانت هدية مسيو جومار له على تفوقه كتاب « الأنيس المفيد للطالب المستفيد » و « جامع الشذور » من منظوم ومنثور تأليف « مسيو د ساسى » .

وكان مسيو جومار مشرفا على البعثة ، وهو من علمـــاء الحملة الفرنسية الذين صحبوا بونابرت الى مصر ، وغدا بعد ذلك رئيسا للجمعية الجغرافية وعضوا فى المعهـــد الفرنسى ، واضطلع بنشر دراسات علماء الحملة فى كتاب ضخم عرف باسم « وصف مصر » ، وكان على صلة بمحمـــد على واستطاع أن يجذب بعوثه الى فرنسا وكان قد اتجه بها الى ايطاليا فى أول الأمر .

وتوسم جومار فى الفتى الأزهرى نجابة واقبالا على الدرس

---

(١) المصدر السابق : الفصل السادس من المقالة الرابعة .

واهتماما باللغة الفرنسية ، وكان جومار ولا شك يعرف من خلال اقامته بمصر أن الأزهريين هم أكثر المصريين الماما باللغة العربية وأقدرهم تعبيرا بها ، فاذا قدر لهذا الفتى أن يلم باللغة الفرنسية المامه باللغة العربية فانه سيغدو بلا ريب رسول الثقافة الفرنسية الى الناطقين بالضاد ، وللفرنسيين اهتمام بنشر لغتهم وثقافتهم لا يعدل اهتمام أمة أخرى من الأوربيين ، ويعلم الفرنسيون أن لغتهم تنتشر فى العالم المتمدين انتشارا لا يعدله انتشار لغة أخرى ، فهى لغة السياسة والأدب والفن الرفيع فى المحافل الدولية ، فاذا انتشرت الفرنسية فى هذا الشرق الناهض أو فى المستعمرات المتخلفة فانها ستكون رسول الثقافة الفرنسية الى تلك البلاد ، وتصبح فرنسا كعبة القصاد وأمل المثقفين فى كل مكان من العالمين .

لذلك كان رفاعة موضع رعاية جومار فشجعه على دراسة اللغة الفرنسية ووجهه الى الاهتمام بالترجمة ، ولعله حين سمع أنه يدون مشاهداته فى باريس أيقن أن هـذا الفتى سيكون رسول الغرب الى الشرق ، وأن فرنسا التى فشلت فى مد نفوذها السياسى والعسكرى الى الشرق ستفلح فى مد نفوذها الثقافى اليه ، وتصبح أكثر الدول حظوة فيه . ولقيت فكرة رفاعة فى الكتابة عن باريس تأييده واستحسانه .

ولا نعجب بعد ذلك من أن يكون هذا الكتاب الذى كتبه رفاعة عن باريس أحـد الموضوعات التى يتقـدم بها للامتحان

الأخير ، وأن ينال هذا الكتاب تقدير المستشرقين الفرنسيين « سلفستر دى ساسى » و « كوسان دى برسـقال » ، وأن ينوها به لدى مسيو جومار ، ليكون دليلا على ما أفاد الشيخ الأزهرى من ثقافة الغرب ، وما وعى من ثقافة الفرنسيين فضلا عن المترجمات العديدة التى تقدم بها اليه .

ويبلغ من اهتمام « دى ساسى » بنشر الثقافة الفرنسية فى مصر أنه يقترح عليه تصنيف « كتاب يشتمل على نحو اللغة الفرنساوية المتداولة عند أمم أوربا كلها وفى ممالكها ، حتى يهتـدى أهل مصر الى موارد تصـانيفنا فى فنـون العلوم والصناعات ومسالكها ، فانه يعود لك فى بلادك أعظم الفخر ، ويجعلك عند القرون الآتية دائم الذكر »[1] .

ونراه يحبب اليه هذا الأمر بما يعود عليه من فخـر ومن خلود الذكر ، وكأن « دى ساسى » كان يعلم أن امتداد الموجة الغربية الى مصر وغيرها من بلاد الشرق سيكون موضع تقدير الأجيال المقبلة وتكون فرنسا رائد حركة التمدين اليها .

ولا يغفل « كوسان دى برسقال » فيكتب الى جومار فى تقريظه للكتاب قائلا : « ظهر لى أن هذا التأليف يستحق كثيرا من المدح ، وانه مصنوع على وجه يكون به نفع عظيم لأهالى بلد المؤلف ، فانه أهدى لهم نبذات صحيحة من فنون فرنسا ، وعوائدها ، وأخلاق أهلها ، وسياسة دولتها ، ولما رأى أن وطنه

---

(١) المصدر السابق : الفصل الرابع المقالة الرابعة .

أدنى من بلاد أوربا فى العلوم البشرية والفنون النافعة أظهر التأسف على ذلك ، وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الاســلام ، ويدخل عندهم الرغبة فى العلوم المفيدة ، ويولد عندهم محبة تعلم التمدن الافرنجى ، والترقى فى صنائع المعاش ، وما تكلم عليه من المبانى السلطانية والتعليمات وغيرها ، أراد أن يذكر به لأهالى بلده أنه ينبغى لهم تقليد ذلك ، وما نظر فيه فى بعض العبارات يدل فى الغالب على سلامة عقله وخلوه من التعسف والتحامل » [1] .

وبعد خمس سنوات قضــاها رفاعة فى باريس ، عاد الى بلاده لا ينكر من حضارة الغرب الا ما رآه مخالفا للدين والملة دون تزمت أو جمود ، فقد عاش فى باريس وفيــا لاسلامه وعروبته وبلده مصر ، لا ينقطع عن أداء « الفروض والسنن » و « لا يأكل شيئا مما لم يذكر عليه اسم رب الأنام » وواظب على تلاوة القرآن الشريف ومطالعة العلم المنيف » [2] ، ونراه يستعيذ بالله ممن تنصر من المسلمين الذين تبعوا الفرنسيين عند رحيلهم عن البلاد وكان قد لقى بعضا منهم عنــد نزوله الى مرسيليا وسمع بأخبار الآخرين ، ويستشهد ببيت من الشعر يقــول :

كل دين ان فاتك الاسلام   فمحــال ، لأنه أوهام

---

(١) المصدر السابق : نفس الفصل .
(٢) حلية الزمن ص ٣٢

ولكن هذا الفتى الأزهرى الذى ذهب الى باريس واعظا واماما « للأفندية المبعوثين » ، وظل حفيظا على دينه وتقاليده ، كان أول من يلتقى الشرق والغرب فى عقله وفى قلبه على وفاق ؛ فكان رائد المدنية والنهضة الى بلاده وبلدان الشرق العـــربى أجمـــع .

تخليص الأبريز

ويتمثل فيه التقاء الشرق والغرب على وفاق ، فليس الكتاب وصفا لرحلة ، وان أوفى فى الوصف والمشاهدة على الغاية ، وليس تقريرا شاملا عن دراسة طالب مجتهد ، أو شاهدا حيا على نشاط أول بعثة تعليمية كبرى تفد على باريس من مصر ، وان عد مصدرا مباشرا لحياته تلك ولدراسة المبعوثين المصريين الى فرنسا ، ولكنه صورة حية للقاء مثمر بين الشرق والغرب فى العصر الحديث ، ففيه يتماثل النقيضان وتستوى الصورة على وفاق ، فان غدا الغرب موئل الحضارة والتقدم ، فقد أخذ علمه عن الشرق وذلك مما لا ينكره أهل الغرب ، فانهم « يعترفون لنا بأنا كنا أساتذتهم فى سائر العلوم ، وبقدمنا عليهم » [1]

وهذه النظرة كفيلة بأن تخلص الفتى من مركب النقص الذى يعتور بعض النازحين الى بلاد متقدمة فيتنكرون لتقاليدهم وعاداتهم ، ويعانون من انفصام الشخصية الذى يعوقهم عن الادراك الصحيح ، وعن تبين الأمور فى منهاجها الواضح المستقيم .

---

(١) تخليص الابريز : الباب الأول من المقدمة .

بل أنه ليعتز بأنه صاحب الفضل فيستشهد بأبيـات من الشعر تقول :

أنا الشجاع الذى قد كنت فى ظمـأ
وسط الهجير على الرمضاء فى الوادى
فجـدت بالماء فضـلا منك مبتـدئا
بغير قل ، فأشـفى غـلة الصـادى
هـذا جـزاؤك منـا ، لا ثمـن به
فضلا بفضل وكان الفضـل للبادى

ولا يورثه بالتالى مركب الاستعلاء فيرتد الى الجمود ، أو الوقوف عند احيـاء ما غبر من تراث الماضى ، ولكنه يؤمن بالتقدم والتطور ، فاذا كان الغرب قد أخذ عن الشرق ، فقد دفع عجلة التقدم أشواطا الى الأمام ، وعلينا أن نأخذ عن هذا الغرب مآثره فى التقدم ، وأن نحيى فى هذا الشرق ما غبر من مفاخره ، فنأخذ بسنة الاحياء كما نأخذ بسنة التجديد لتصل اليقظة بين الماضى والحاضر على هدى وبصيرة .

فالى شره الشيخ فى تحصيل المعارف الجديدة والتنويه بها ، لا يغفل تراث ماضـيه ، فتارة يتحدث عما كانت عليـه بلاد الاسلام من « تمدن ورفاهية وتربية زاهرة زاهية » بفضـل « اعانة صاحب الدولة لأهله » ، وعن اهتمام الخلفاء والملوك بالعلوم والفنون حتى كان منهم من « يشتغل بهـا بنفسه » كالمأمون بن هارون الرشيد الذى أغرم « بعلم الفلك ، وهو الذى حرر ميل دائرة فلك البروج على دائرة الاستواء فوجده

بالامتحان ثلاثا وعشرين درجة وخمسا وثلاثين دقيقـــة » [١] ،
وتارة يقرن ابن خلدون الى منتسكيو وينوه بتقدير الغرب له ،
ويشبه « دى ساسى » « بالفارابى » ، ولا يفوته اذ يلقى نظرة
على أعمال « دى ســاسى » العلمية ، أن يستطرد الى ترجمة
حياة الفارابى واعجازه فى كل لغة وفن ، وكأنه يدلل على صدق
ما قاله من قبل من فضل الشرق على الغرب . ولعله بهذا كان
يستثير حمية الشرق الى النهوض والتقدم .

فالشرق ماثل فى ذهنه على الدوام لا يغفل عنه ، يشجيه
ما يشجيه ، ويأسى لما يلم به من عسف الليالى ، ويطرب لما يلقاه
من خير ، فقد كانت حميته للوطن هى التى تقود خطاه وتحفزه
لكل عمل يقوم به مؤمنا بأن فيه أعظم النفع لبـــلاده ، حتى
ليتلمس كل ما يعلى من شأنه ويشيد بذكره ، فمن قراءاته فى
الصحف اليومية والشهرية يعثر على رسالة بعث بها فرنسى
متطوع للحرب فى صـــفوف الروس ضـــد الدولة العثمانية
سنة ١٨٢٨ ، يشيد فيها ببسالة العثمانيين ، وشجاعة جنـــد
الاسلام فيقوم بترجمتها مثالا لما كان يقوم بترجمته عن تلك
الصحف ، ولكنه يضمنها كتابه هذا ، فخرا منه ــ كما نعتقد ــ
بما يحرز الاسلام من نصر وبما ينوه به الأعداء من شجاعة جنده .

والرسالة بحق شهادة فخر لجند الدولة العثمانية أو جند
الاسلام ، ففيها يقول المتطوع : « ان هذه أول مرة التحم فيها

---

(١) ما بين الاقواس من نفس الباب .

صفنا مع الصفوف الاسلامية » ثم يقول بعد دهشته وذهوله مما يرى : « وان كان بعساكرنا شجاعة وصلابة فى الحروب ، فعساكر الاسلام لها مصادمة قوية بمعزل عن الهروب ، وهذه المصادمة هى التى تستسهل الخطر ، وتخترق المانع لبلوغ الوطر ، ينتج منها ثمرتان : أنها تلقى الحيرة فى عقول الرجال ، والثانية أن عاقبتها دائما تفرغ الفزع فى قلوب الأعداء ولو كانوا من الأبطال ، ولو شاهدت عيناك ما شاهدته من أن الفرسان العثمانية تروع الانسان بمجرد منظرها المرعب ، وبسرعة اقتحامها المدهش المعجب ، ومشيها على صوت الألحان الوحشية ، وصهيل الخيول الكردية ، ونزولها كالصواعق على المشاة الموسقوبية ، لحكمت مثلى بأن هذه الحرابة تطول ، وأن اضطرام نارها قل أن يزول ، أو ليس أن للدولة العثمانية فرسانا عظيمة مرتبة بترتيب عجيب ، وهمة علية بنظام غريب ، أو هل ينكر أحد أن رجالهم متمرنون على ركوب الخيل ، وأن خيولهم على أصل خلقتهم الوحشية طائعة لسيدها فى الاقدام والاحجام ، يبلغ عليها فى الحرابة المقصود والمرام ؟ فياويل العساكر القرابة التى يلتحم صفها بصف هذه الخيول المركوبة لهؤلاء الفحول الذين لهم زيادة على قوتهم الجهادية ، دعامة غيرتهم الاسلامية والوطنية »[1] .

ولا تجد تعليقا لرفاعة على تلك الرسالة ، ولعله خشى أن

---

(1) المصدر السابق : الفصل الخامس من المقالة الرابعة .

يتهم بالتعصب الدينى من قبل الفرنسيين ممن يعـرف أنهم سيقرأون كتـابه ، ولعله كعادته يترك الحقيقة وحدها لتعبر للقارىء عما يريد ، ولكن مما لا شك فيه أن الرسالة ترجمة صحيحة لعواطفه الوطنية والاسلامية نلمسه ونحســه فى كل فصول الكتاب .

ولكنه فى مناسبة أخرى يعلن عن رأيه اعلانا لا يسـمه بالتعصب ، ويضفى عليه من الغيرة الوطنية والقومية ما يعد فضيلة لدى الفرنسيين فلا يؤخذ بلوم ولا يجابه بمأخذ ، فنراه يبدى غبطته لما نال ملك فرنسا ورئيس وزرائه « بولنيـاق » على يد الفرنسيين الذين ثاروا على حكومتهم سنة ١٨٣٠ بعد غزو الجزائر بوقت قليل فيقول : « اعلم أنه جاء الى الفرنساوية خبر وقوع الجزائر فى أيديهم قبل حصول هـذه الفتنة بزمن يسير ، فتلقوا هذا الخبر من غير حماسة ، وان أظهروا الفرح والسرور به ، فبمجرد ما وصل هذا الخبر الى رئيس الوزراء « بولنياق » أمر بتسييب مدافع الفرح والسرور ولقد صدق من قال :

وكم سرور طيــه أحزان لأجل هــذا خلق الزمان

وصار يتماشى فى المدينة كأنه يظهر العجب بنفسه ، حيث أن مراده نفذ ، وانتصرت الفرنساوية فى زمن وزرائه على بلاد الجزائر ، فما كانت أيام قلائل الا وانتصرت الفرنساوية عليه وعلى ملكه نصرة أعظم من تلك ، حتى ان مادة الجزائر نسيت بالكلية ، وصار الناس لا يتحدثون الا بالنصرة الأخيرة ، على

أن حاكم الجزائر خرج منها بشروط ، وأخـذ منها ما يملكه ، وملك الفرنسيين خرج من مملكته يتنـدم على ما وقع منه ، وللزمان صروف تدول ، وأحوال تحول وكان هذا هو عاقبته على غارته على بلاد الجزائر بأسباب واهية لا تقتضى ذلك بل بمجرد ارضاء هوى النفس ، واذا نصر الهوى بطل الرأى » .

« ومما وقع أن المطران الكبير لما سمع بأخـذ الجزائر ، ودخل الملك القديم الكنيسة يشكر الله سبحانه وتعـالى على ذلك جاء اليه ذلك المطران ليهنيه على هذه النصرة ، فمن جملة كلامه ما معناه : انه يحمد الله سبحانه وتعالى على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الاسلامية ، ولا زالت كذلك ــ انتهى ــ مع أن الحرب بين الفرنساوية وأهل الجزائر انما هو مجرد أمور سياسية ، ومشـاحنات تجارات ومعاملات ومجادلات منشؤها التكبر والتعاظم » .

« ومن الأمثال الحكمية : لو كانت المشاجرة شجرا ، لم تثمر الا ضجـرا ، فلما وقعت الفتنة كسر الفرنسـاوية بيت المطران بعد هروبه وضربوه ، وأفسدوا جميع ما فيه حتى انه تخفى ، ولم يعلم له أثر ثم ظهر واختفى ثانيا ، وهجم على بيته ثانيا ، ولا زال مذموما مخذولا ، قال الشاعر :

لا تعـجبن رويدا انهـا دول
دنيـا تنقـل من قوم الى قوم

« ثم ان الفرنساوية لما رأوا أن « شرل العاشر » أخرج « باشا الجزائر » من مملكته أيضا ، صاروا يهزءون « بشرل »

العاشر ويصورونه هو وباشا الجزائر فى الطرق ، ويكتبون فى وقائع النوادر تلميحات غريبة ونكات ظريفة ، فمن جملة ذلك أنهم صوروه هو والباشا المذكور وكتبوا تحت صورة باشا الجزائر : وأنت أيضا جاءت نوبتك ؟ ! » .

ويستطرد رفاعة فى ذكر سخرية الفرنسيين بملكهم المعزول وتنديدهم به ونشر مثالبه ومخازيه ، وقد خرج ذليلا مهانا فقيرا فى حين خرج « باشا الجزائر » كريما عزيزا غنيا ، ويتندرون بأن « الباشا المذكور يقول « لشرل » العاشر قم بنا نلعب لعب كذا ، على قدر معلوم ، وان لم يكن معك شيء جمعنا لك شيئا على سبيل الصدقة من الناس ؟ يشيرون بذلك الى أن باشا الجزائر خرج من بلاده غنيا ، و « شرل » العاشر خرج من بلاده فقيرا » [1] .

وختم رفاعة بهذا التعليق حديثه عن ثورة الفرنسيين سنة ١٨٣٠ ، معللا هذا الحديث بأهمية تلك الثورة ، فانها تعد عند الفرنساوية من أطيب أزمانهم وأشهرها ، بل ربما كانت عندهم تاريخا يؤرخ منه » .

وليس غريبا أن يتحدث رفاعة عن هذه الثورة ويذكر أسبابها ودواعيها فقد أجمل كتابه كثيرا من المعارف ، وان كنا لا نحمل الحقائق فوق طاقتها ، الا أننا نرى أن الحديث عن الثورة التى أفرد لها مقالا من سبعة فصول بعد أن تحدث عن

(١) المصدر السابق : الفصل السادس من المقالة الخامسة .

نظام الحكم فى فرنسا وترجم مواد الدستور الفرنسى ، دلالة واضحة على حرص الشعب الفرنسى على حقوقه ، ولعله أراد أن يقول بطريق غير مباشر ان الأمم الراقيــة هى التى تحكم نفسها بنفسها ، وان حرص الأمة على حقوقها هو الذى يحميها من عسف الحاكم وبطش السلطان . ولا يفوته أن يسفر غير متحرج عن ذاته وغيرته على بلاد الاســلام حين يثبت عاقبة المعتدين على الجزائر فى فرحة لا يخفيها وان تنكب الافصاح عنها الا بتصوير ما كان من الفرنسيين نحو المعتدين ، بل أنه ليحاول أن يبرىء الفرنسيين من تهمة الاعتداء فيقــول انهم « تلقوا هذا الخبر من غير حماسة » وان تدارك ما يمكن أن يحمله هذا القول من مجافاة للحقيقة فيقول : « وان أظهــروا الفرح والسرور به » كما يحاول أن يبرئهم من تهمة التعصب الدينى فيسنده الى « المطران » و « الملك » أما الفرنسيون فلم تكن الحرب بينهم وبين الجزائر « الا مجــرد أمور ســياسية ومشاحنات وتجارات » .

وما من شك فى أن رفاعة قد لقى كثيرا من العناء الذهنى فى كتابه « تخليص الابريز » فهو فى غيرته على بلاد الاسلام والمســلمين يعمل جاهدا على ألا يثير نزوات المتعصــبين من الفرنسيين ، فانهم على ما يتمتعون به من حرية دينية ، ومن نزعة بعضهم الى الالحاد مما يستقبحه رفاعة منهم ، أشد الأمم

---

(١) من عنوان المقالة الخامسة .

تعصبا وحفاوة بالتبشير والمبشرين ، وقد سارت أعلامهم الاستعمارية وهى تحمل دعوة التبشير الى المستعمرات ، ولا نعتقد أن ذكريات الحروب الصليبية قد غابت عن رفاعة ، ولكنه لا يحب أن يعرض لهذا الجانب من حياتهم أو يستثيره ، وان انزلق اليه فانه يكتفى بالعرض دون التعليق ، شأنه فى هذا شأن ما ذكره عن الدستور الفرنسى وثورة الفرنسيين على شارل العاشر وحكومته وامتداحه لهذا الدستور ، ولتقييد سلطة الحاكم ولنظام الضرائب مما يمكن أن يكون موضعا للمقارنة لدى المصريين وان لم ينزلق الى هذه المقارنة ، ولعله يعتذر عنها بأن « غالب ما فيه ليس فى كتاب الله ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم »[1] وان كانت « قد حكمت عقولهم بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك وراحة العباد »[2] .

ويبدو أن محمد على لم يلق بالا الى هذا الحديث عن الدستور الفرنسى وحقوق الرعية ، وهو الحاكم المستبد ، ايمانا بأن السواد الأعظم من المصريين ليسوا على درجة من الثقافة أو الوعى القومى الذى يدفع الشعوب الى مقاومة الاستبداد والطغيان كما قاوم الفرنسيون نزعة شارل العاشر الاستبدادية ، فقد لقى تخليص الابريز بعضا من حفاوة محمد على « فحاز اعجابه قبل نشره ودفعه هذا الاعجاب الى الأمر بطبعه ، وأصدر

---

(١) المصدر السابق : الفصل الثالث من المقالة الثالثة .
(٢) المصدر السابق : الفصل الثالث من المقالة الثالثة

أمره بقراءته فى قصوره وتوزيعه على الدولوين والمواظبة على تلاوته والانتفاع به فى المدارس المصرية »[1] ، وطبع الكتاب لأول مرة سنة ١٨٣٤ ، ولعل ما فيه من التنويه بفضل الوالى هو ما حمل الوالى على نشره والأمر بقراءته فى قصوره ودواوينه ومدارسه حيث يلهج الجميع بفضل ولى النعم .

أما العامة أو السواد الأعظم من الشعب فليس هناك ما يخشاه منهم ، وهم فى الغالب ممن يسيئون الظن بمن عاشر الأوربيين من المسلمين ، فلا يقبلون على الاستماع اليهم أو قراءة كتبهم مما يشير اليه بعض المؤرخين[2] ، ويصوره الرحالة الانجليزى « ادوارد لين » فيما يرويه عن رجل جاء يطلب نسخة من تخليص الابريز من كتبى كان يجلس عنده ، فسأل أحد الحاضرين عما فيه ، فتطوع رجل للاجابة ساخرا من الكتاب وصاحبه مما يبين رأى العامة فيه بقوله « أنا أقص عليك نبأ هذه الرحلة بالحق ، انها تحتوى على وصف سفر رفاعة من الاسكندرية لمرسيليا ، وعلى ما جرى له أثناء هذا السفر ، عندما سكر وعربد ، عند ذلك أمر الربان بشد وثاقه الى صارى السفينة وجلده ، ثم نزل بلاد الافرنج حيث طاب له لحم الخنزير ومعاشرة النساء الافرنجيات ، ثم بعد أن ارتكب من الموبقات كل ما يعد له مقعده من النار عاد الى مصر »[3] .

---

(١) حلية الزمن ص ٦١

(٢) تقديم تاريخ التعليم فى عصر محمد على .

(٣) بدوى : رفاعة ص ١٤٠

فلا ضير اذن من نشر تخليص الابريز على الخاصة من رجال دولة محمد على وهم ممن يدينون بنعمتهم له ، وفيه من الثناء عليه والاعتراف بفضله ما يعلى من شأنه ويؤيد حكمه .

وقد تجنب رفاعة فى ذكر آرائه ووصف مشاهداته ما يمكن أن يؤخذ عليه مع ما اتسم به من صراحة لا تجرح ، فمما يأخذه على الفرنسيين من بخل لايرى الفرنسى فيه بخلا وانما هو الحرص القمين بالحذر اللبيب ، بل انه ليرى فى بعض ألوان الكرم سفها أو رغبة فى التباهى هو فى غنى عنه ، ولا يؤذيه أن يوصف بالبخل ، بل أن رفاعة نفسه لا يرى فيه منقصة للفرنسى مادامت تلك هى خلة الشعوب جميعا و « السبب فى ذلك هو أن الكرم فى العرب » . وما يأخذه على نسائهم من اباحية وعلى رجالهم من استسلام للنساء مما يراه العربى رذيلة أو ضعفا لا يراه الفرنسى أو الغربى رذيلة أو ضعفا ، بل قد يراه نوعا من اللباقة أو من قبيل الحرية التى يتمتع بها الجنسان على السواء ، فاذا ثبت لأحدهم « فجور زوجته » هجرها وانفصل « عنها مدة العمر » بعد اقامة « دعوى شرعية ومرافعة يثبت فيها الزوج دعواه بحجج قوية على رءوس الأشهاد ، تتلوث فيها الذرية بالفضيحة وان كانت بدون لعان ، ولا تعرض للأولاد ، وهذا يقع كثيرا فى العائلات الكبيرة والصغيرة ، ويشهد مجلس المرافعة الخاص والعام ، فلا يعتبر الآخرون بذلك ، مع أنه ينبغى الاحتراس منهن ، كما قال الشاعر :

« لا يكن ظنك الا سيئا بالنسا ان كنت من أهل الفطن
ما رمى الانسان فى مهلكة قط الا ظنه الظن الحسن » [1]

فكأن رفاعة لا يأخذ على الفرنسى غير حسن ظنه بالنساء مع ما يجب على الرجل من حرص مع النساء ان لم يسىء بهن الظن ، ولا نعتقد أنه بقى على هذا الرأى ، فقد كان يرى أن عفة المرأة فى تربيتها وفى ثقة الرجل بهـا ، وكان أول من دعا الى تعليم المرأة واقامة العلاقات الزوجية على أساس من الود وحسن العشرة والتفاهم المشترك بين الرجل والمرأة مما يكثر معه الرزق والثروة ، وتحسن تنشئة الأولاد ومعاملة الخدم [2]

ولكن الذى يستنكره رفاعة من خلق الفرنسيات هو « قلة عفاف كثير من نسائهم » فالعفة والحياء وأمانة الزوجين وصدقهما فى المحبة من أسباب « توطد دعائم البيت » [3] .

فالنظرة التى ينظر بها رفاعة الى أخلاق الفرنسيين وسلوكهم هى نظرة العربى المسلم الذى يستمد خلقه من فضائل دينه ومجتمعه ، على خلاف ما يراه الفرنسى الذى يدين « بالتحسين والتقبيح العقليين » [4] والذى هجر دينه فلم يعد له « من دين النصرانية غير الاسم ، فهم داخلون فى اسم الكتابيين ، فلا يعتنون بما حرمه دينهم أو أوجبه ... ويقولون

---

(١) تخليص الابريز : الفصل الثانى من المقالة الثانية
(٢) المرشد الأمين : ص ٢٧٣
(٣) المصدر السابق : ص ٢٠٦ ـــ ٢١٥
(٤) تخليص الابريز : الفصل الثانى من المقالة الثانية .

ان سائر تعبدات الأديان التى لا نعـــرف حكمتها من البدع والأوهام »[1] .

ومن مظاهر هـــذا الاختـــلاف بين عقلية الشـــيخ المسلم والفرنسى الذى ينكر ما لا يألفه العقل من دينـــه ، ما يأخذه الشيخ على الفرنسيين من انكار « للقضاء والقدر » مع أن العاقل « من يصدق بالقضاء ويأخذ بالحزم فى سائر الأشياء وان كان لا ينبغى للانسان أن يحيل الأشياء على المقادير أو يحتج بها قبل الوقوع ، فان من الأمثال التى سارت بها الركبان كثره الاحالة على المقادير »[2] ، فقد استطاع الشيخ المسلم أن يوفق بين دينه وتفكيره العقلى ، وعجز الفرنسى عنه فلم يعد يدين الا بما يهديه اله عقله .

فاذا انتقل بنا رفاعة الى مافى باريس من حكمة وعلم فانها «من أحكم بلاد الدنيا وديار العلوم البرانية »[3] ، وكأن رفاعة قد أراد أن يضع أمام مواطنيه ما يمكن أن يأخذوا به من حضارة الغرب وتقدمه دون الوقوع فى مثالبه ومساوئه ، مما يبدو معه قدرته على التوفيق بين دينه وتقاليده وبين مظاهر الحضـــارة الفرنسية والتقدم الغربى ، وتتبدى فيه الحالة العقلية والنفسية التى كتب بها « تخليص الابريز » .

فقد ذهب رفاعة الى باريس وهو يزمع أن يكتب شيئا عن سفرته تلك « ليبقى دليلا يهتـــدى به الى السفر اليها طلاب

---

(١) الفصل الثانى عشر من المقالة الثانية .

(٢) الفصل الثانى من المقالة الثانية .

(١) نفس الفصل .

الأسفار » ويعرف الناس بأحـــوالها وأحوال أهلها ، وليرضى أستاذه « المولع بسماع عجائب الأخبار ، والاطلاع على غرائب الآثار » . ولكن باريس تكشف له عن دنيـــا لعلها لم تخطر بباله ، وعن حياة ان داعبت خياله ، فقد بدت فى لهوها وجدها أبعد ما تكون عن شطحات الخيال ، وان لم يقصَّ علينا كيف تخيلها قبل أن يراها ، وان قيل الها عروس الأقطار وسمع عن حياة الفرنسيين فى القاهرة من شيخه « العطار » ، أو مما يتناقله الرواة من أخبار جند « بونابرته » فان الحياة فى باريس وفى قلب المجتمع الفرنسى أبعد ما تكون ــ دون شك ــ عن حديث الرواة وعما رآه المصريون من جند « بونابرته » . وعن قول قد لا تصدقه الحقيقة .

فليس ما يكتبه اذن وصف رحلة أو تعريفا بعروس الأقطار ، ولكنه شىء جديد ، كشفت باريس عنه : هو علم باريس وفنون باريس وصنائع باريس « فان كمال ذلك ببلاد الأفرنج » فظل طوال اقامته بها « فى حسرة على تمتعها بذلك وخلو ممـــالك الاسلام منه » [1] ، وعليه أن ينقل الى بلده هذا الشىء الجديد ويعرف أهله به .

وفى هذا تتحدد غاية الرجل وآماله لا فى كتابه « تخليص الابريز » بل فى كل ما جرى به قلمـــه وما قام به من عمل فى حياته ، فكان رائد نهضة وبشيرا بالبعث الجـــديد . ويصبح « تخليص الابريز » دعوة خالصة للتقدم والارتقاء ، تختلط

---

(1) فاتحة الكتاب .

فيه الرغبة بالحسرة والتطلع بالأمل ، والحمية الدينية والقومية بالتحرر والانطلاق من اسار الجهل وقيوده الثقال الى رحبات العلم الفساح . ويغدو موســوعة لألوان من المعارف يرى أن قومه فى حاجة اليها ، فبعد أن يتحدث عن أسباب سفره وصحبه الى باريس من رغبة فى اكتساب ما تحتاجه بلاده من العلوم الحديثة التى دفعت أوربا الى التفوق والارتقاء والأمل فى أن يثمر كتابه ثمرته المنشودة فى يقظة « سائر الأمم الاسلامية من عرب وعجم » ، يتحدث عن « العلوم والفنون المطلوبة والحرف والصنائع المرغوبة» مما وعاه الغربوفات قومه معرفته ، وكأنه يدلهم الى الطريق الرشيد للارتقاء » .

ولا يفوته فى سائر فصــول الكتاب أن يتناول ألوانا من المعارف قد تبدو غريبة على منهج الكتاب وغايته ، ولكنه يرى فيها فائدة تعود على قومه بالنفع كأدراجه « نبذة من فن قانون الصحة وتدبير البدن ، حتى تتم فائدة هذه الرحلة « التى يقول انه قام بترجمتها » فى باريز لقصد استعمال جميع الناس بمصر لها فهى وان كانت تخرجنا عما نحن بصــدده الا أن منفعتها عظيمة وثمرتها جسيمة » [1] .

فتخليص الابريز دعوة للارتقــاء أكثر منه وصف رحلة . ومنهاج للنهوض أكثر منه تعريفا بأمة بعيدة ، وبشير بالبعث الجديد أكثر منه موســوعة لألوان من المعــارف حرص على عرضها ، وهو بعد ذلك ثمرة التقاء الشرق والغرب على وفاق .

---

(1) الفصل التاسع من المقالة الثانية .

المعلم

عاد رفاعة ورفاقه الى مصر سنة ١٢٤٦ هـ (أواخر عام ١٨٣١) وقد أدرك غايته من العلم والمعرفةوحدد طريقه ؛ فان قال انه تكفل « بترجمة علمى التاريخ والجغرافية بمصر السعيدة بمشيئته تعالى » [1] فقد أوفت ارادته عليه وغدا معلم أمة ورائد نهضة . وان عرف أن عمله رهن بارادة ولى النعم و أن رسالته لا تتحقق الا فى اطار الوظيفة التى يتولاها ، فقد تحرر بمؤلفاته من اسار الوظيفة وارادة ولى النعم فساق فيها كل ما رأى فيه نفعا لقومه ووطنه ، وكان فى الحالين معلما ينقل لتلاميذه ما هم فى حاجة اليه من علوم الغرب وفنونه ، ويكتب لهم ما يقومهم ويرشدهم الى السداد من طريقهم فتخرج على يديه رعيل من الرواد كانوا لبنة النهضة المصرية الحديثة .

وكان يؤمن أن الترجمة هى النواة الأولى فى بناء النهضة العلمية ، فلم يقصر عمله على ترجمة الكتب المدرسية بل عداه الى ترجمة ما هوته نفسه من التاريخ والجغرافية ، وبقدر ما أقبل على ترجمة كتب الجغرافية كان اقباله على التأليف فى التاريخ ، وبين الترجمة والتأليف شغل كل فراغه فلا يكاد يفرغ من أعباء

---

(١) الفصل السابع من المقالة السادسة .

الوظيفة حتى يكب أحـدهما وكأنه يسـابق الزمن للوفاء برسالته ، فلا نعرف أنه انقطع طوال عمـره الذى نيف على الخامسة والسبعين عن التحرير والتحبير .

وفى القاهرة كانت تقارير جومار قد سبقته اليها وكلها تنوه باجتهاده وتمكنه من الترجمة فعين مترجما ومدرسا للغة الفرنسية بمدرسة الطب فى أبى زعبل . وكانت الدروس تلقى فيها بالفرنسية ثم تترجم للطلبة الى العربية تحت اشراف مترجم سورى يدعى « يوحنا عنحورى »أجرى له اختبارا دل على امتيازه ، وشهد له « عنحورى » عند روسائه بأنه « أستاذى وهو أحق منى بالرياسة ، لأنه أدرى منى بالتعريب ، والتنقيح والتهـذيب ، وهذه شهادة الحق التى تقضى له بالسبق » [1] .

والى جانب عمـله بمدرسة الطب أنيـط به الاشراف على المدرسة التجهيزية للطب التى عرفت « بمدرسة المارستان » ، وكانت تعد الطلاب للالتحاق بمدرسة الطب ومدة الدراسة بها ثلاث سنوات يدرس فيها الطلبة مبـادىء الحساب والهندسة ووصف الكون والتاريخ الطبيعى ، والتاريخ القديم والحديث والمنطق [2] .

ويقال انه ترجم خلال تلك الفترة رسـالة فى الطب ، لم يستدل عليها ، ويرى الشيال انه كان فى هذه المدرسة مصححا ومحررا أكثر منه مترجما ، ولا يعرف عنه انه ترجم فى الطب غير الرسالة الصغيرة التى ضمنها رحلته غير انه قام بمراجعة كتاب

(١) حلية الزمن ص ٣٥
(٢) التعليم فى عصر محمد على ص ٢٨٨

« التوضيح لألفاظ التشريح فى الطب البيطرى » الذى ترجمه يوسف فرعون وصححه الشيخ مصطفى حسن كساب ، وطبع فى بولاق سنة ١٢٤٩ هـ [1] .

وبعد سنتين أمضاهما بمدرسة الطب ، انتقل الى مدرسة الطوبجية (المدفعية) بطرة لترجمة الهندسة والفنون الحربية ، ويبدو أن ميله لهذين العلمين هو الذى دعا الى نقله الى مدرسة الطوبجية ، وكان قد ترجم وهو فى باريس فصولا من كتاب « لجندر » فى الهندسة ورسالة فى عمليات ضباط العسكرية . وبقى بها هى الأخرى عامين (من سنة ١٢٤٩ الى ١٣٥١ هـ ــ ١٨٣٣ ــ ١٨٣٥ م) ترجم خلالهما رسالة فى الهندسة مما كان يدرس فى أكادمية سان سير الحربية بفرنسا ، وكتاب « التعريبات الشافية لمريد الجغرافية » .

ولما اجتاح وباء الطاعون القاهرة عام ١٢٥٠ هـ غادرها الى طهطا ، وفى خلال شهرين ترجم المجلد الأول من كتاب ملطبرون فى الجغرافية وكان قد ترجم بعض صفحات منه فى باريس .

ولم يكن رفاعة على وفاق مع « دى سكويرا » ناظر مدرسة الطوبجية ، فقد كان دى سكويرا اسبانياً يكره الفرنسيين والثقافة الفرنسية ، فطلب رفاعة اعفاءه من العمل بها ، فنيط به الاشراف على مكتبة المدرسة التجهيزية وتعليم « تلامذة

---

(١) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية ص ٨٣ - ٨٧ ، ورفاعة راجع الطهطاوى ص ٣٠ ــ ٣١

الجغرافية » بها ، وكان مقرها بالقصر العينى قبل أن تنقل اليه مدرسة الطب .

ولم يطل عهده بها اذ تقدم باقتراح انشاء مدرسة للترجمة لاعداد طبقة من المترجمين الضالعين فى اللغـة العربية واللغات الأوروبية يقومون بترجمة ما تنتفع به الدولة من كتب الغرب وتستغنى البلاد بأبنائها عن الدخيـل [1] ، وليكونوا صلة بين الشرق والغـرب [2] . ولقى الاقتراح قبولا من محمد على فعهد اليه باختيار تلاميذها « مناصفة بين القسمين البحرى والقبلى ممن يقرأ ويكتب بشرط أن يكون التلميذ صحيح البنية وسنه ما بين أربع عشرة سنة الى ثمانى عشرة » [3] .

وأوفد رفاعة مع طبيب لاختيارهم فاختار خمسين تلميذا من مكاتب الأقاليم وطلبة الأزهـر ، يقول صالح مجـدى ان أكثرهم من الصعيد « ثم ارتفع هذا العدد الى مائة وخمسين من جميـع أقاليم مصر ومن مدنهـا المشـهورة وبنـادرها المعمورة » [4] .

وفى سنة ١٨٤١ رأت لجنة تنظيم المدارس أن يكون عدد تلاميذها ستين تلميذا ، فظلت على هذا العدد أو قريبا منه حتى

---

(١) الخطط جـ ١٣ ص ٥٤
(٢) بدوى ـ رفاعة ص ٤١
(٣) حركة الترجمة ص ٢٧
(٤) حلية الزمن ص ٣٧

نهاية عصر محمد على [1] ، وكان مقــرها سراى الدفتردار بحى الأزبكية حيث قام فندق شبرد القديم .

وعرفت المدرسة عندما أنشئت عام ١٢٥١ هـ (١٨٣٥ م) بمدرسة المترجمين وغير اسمها بعد ذلك الى مدرسة الألسن . ومدة الدراسة بها خمس سنوات قد تزاد الى ست .

واللغات التى تدرس بها هى العربية والفرنسية والتركية والفارسية والايطالية والهندســة والجبر والتاريخ والجغرافية ودرست الانجليزية لفترة من الزمن ، الا أن أعظم العناية كان باللغتين العــربية والفرنســية ولم تلق التركيــة غير اهتمام ضئيل [2] .

وكانت مدرسة الألسن وسطا بين التجهيزية والخصوصية ، فقد كان عليهـــا الى جانب اعداد المترجين أن تمــد المدارس الخصوصية بتلاميذ يعرفون الفرنسية ، حتى اذا تخرجوا فيها كانوا على دراية بما يترجمونه [3] ، الا انها لم تعن الا باعــداد تلامذة المدارس الخصوصية ومضت فى تخريج طبقة من مترجمى العلوم الانسانية والاجتماعية لم تكن لهم المقدرة على ترجمة المصطلحات العلمية والرياضية ، فرؤى اعادة المدرسة التجهيزية والحاقها بمدرسة الألسن لاعداد تلامذة للمـــدارس الخصوصية

---

(١) تاريخ التعليم فى عصر محمد على ص ٣٣٠
(٢) المصدر السابق ص ٣٣٢
(٣) بدوى : رفاعة ص ٤٣

قادرين على الترجمة فى نواحى تخصصهم ، واختير للتدريس بها خريجو مدرسة الألسن [1] .

واتسعت مدرسة الألسن فوسعت عدا المدرسة التجهيزية قلما للترجمة وقسما لدراسة الادارة الملكية العمومية (١٢٦٩ هـ ـــ ١٨٤٤م) لاعداد الموظفين اللازمين للعمل بالادارة الحكومية ، وقسما آخر لدراسة الادارة الزراعية الخصوصــية بعد ذلك بعامين ، وفى عام ١٢٦٣ هـ (١٨٤٧ م) أنشىء بها قسم لدراسة الشريعة الاســلامية على مذهب أبى حنيفــة النعمانى لاعداد القضاة ، وقسم للمحاسبة وآخر للادارة الافرنجية [2] . وكان بها مخزن عــد المدارس بحاجتها من الأدوات والملابس ، ومتحف للآثار ومكتبة افرنجية [3] .

وغدت مدرسة الألسن أشبه ما تكون بجامعة تضم كليات للآداب والحقوق والتجارة ، وفيها أثمر جهد المعلم الذى وقف حياته على رعاية التعليم والثقافة فى مصر طوال النصف الأوسط من القرن التاسع عشر . فقام بادارة المدرسة والاشراف على الدراسة بها الى جانب عمله فى التدريس ومراجعة الكتب التى يقــوم تلامذته بترجمتها ، يعاونه طائفــة من خيرة الأجانب والمصريين منهم الشيخ محمد الدمنهورى والشيخ على الفرغلى الأنصــارى من أقربائه ، والشيخ حسنين حــريز الغمراوى

(١) عصر محمد على ص ٣٩٥

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٥ ، وبدوى : رفاعة ص ٤٣ ، والتعليم فى مصر محمد على ص ٣٣٦

(٣) تاريخ التعليم فى مصر جـ ١ ص ٥٧

والشيخ محمد قطة العدوى ، والشيخ أحمد عبد الرحيم الطهطاوى ، والشيخ عبد المنعم الجرجاوى وكلهم من أعلام عصره .

وكأنما وجد رفاعة فى مدرسة الألسن غاية نفسه فوهبها كل جهده مؤمنا بأن خير ما يقدمه لبلاده أن يعد لها جيلا من المترجمين والمعلمين يرودون بها آفاق النهضة التى جنى ثمارها بالغرب ، فكان يقوم الليل والنهار عليها ، فقد كان « دأبه » فى – مدرسة الألسن – كما يقول على مبارك – وفيما اختاره للتلامذة من الكتب التى أراد ترجمتها منهم وفى تأليفاته وتراجمه خصوصا ، أنه لا يقف فى ذلك اليوم والليلة على وقت محدود ، فكان ربما عقد الدرس للتلامذة بعد العشاء ، أو عند ثلث الليل الأخير ، ومكث نحو ثلاث أو أربع ساعات على قدميه فى درس اللغة أو فنون الادارة والشرائع الاسلامية والقوانين الأجنبية ، وله فى الأولى مجاميع لم تطبع ، وكذلك كان دأبه معهم فى تدريس كتب فنون الأدب العالية بحيث أمسى جميعهم فى الانشاءات نظما وثرا أطروفة مصرهم وتحفة عصرهم ، ومع ذلك كان هو بشخصه لا يفتر عن الاشتغال بالترجمة أو التأليف ، وكانت مجامع الامتحانات لا تزهو الا به[1] » .

وأضيف اليه تفتيش عموم مكاتب الأقاليم وتفتيش مدارس الخانقاه وأبى زعبل ، كما كان يرأس كل عام لجنة امتحان تلاميذ

---

(١) الخطط جـ ١٣ ص ٥٤

مكاتب (المبتـديان) بالأقاليم ، فيركب النيـل اليها ويمتحن تلاميذها ويختار المتفوقين منهم للمدرسة التجهيزية ،فغدا أبرز شخصية فى ميدان التعليم فى عصره ، وكأنما أريد له أن يكون المعلم الأول فى جيله .

وما من شك فى أن الرجل كان مرهقا بالعمل رغم جلده ، الا انه لشـغفه به كان لا ينى عنه ولا يكل من السـهر عليه ورعايته ، وحتى لا يتشتت جهده عين له ديوان المدارس فرنسيا يعاونه فى ادارة المدرسة والتفتيش على الدروس والاشراف على المكتبة .

وكان التـلاميذ يمرنون على ترجمـة الكتب زيادة على دروسهم ، ويقوم الأساتذة بمراجعتها واصلاحها تحت اشرافه ثم تطبع ليقرأها المدرسون والتلاميذ [1] .

وفى عام ١٢٥٦ هـ (١٨٣٩ م) احتفل بتخريج أول فوج بالمدرسة وكان من عشرين طالبا ووقف رفاعة يخطب ويقدمهم فيقول :

« بدت مدرسة الألسن كالغرة فى وجه الأزبكية وامتازت »
« بالأعمال السنية ، تتبّعت تلامذتها فى العلوم البحث عن »
« الأصل والفرع ، وتبعث فى الفهوم العقل والشرع . وهم »
« وان تميزوا بقواعد اللغـات المرعية ، فقد تحيزوا الى فئة »
« العقائد الشرعية . وأظهروا من البراعة التامة ، ماهو متردد »
« فى ألسنة الخاصة والعامة . وخرج منهم الى الخدم الأميرية »

---

(١) التعليم فى مصر ص ٣٢٣

« نحو عشرين ، ظفروا لمهارتهم بالرتب البهية ، وظهرت ثمراتهم »
« فى تعريب بعض كتب عظام ، تمت طبعا أو شارف التمام » .

ومن تلك الخطبة :

« تظهر النتيجة كافية شـــافية ، مستكملة وافية ، حتى »
« يظهر للحاضرين ان هذه السنة التى هى ميعاد أول فرقه »
« انجزنا فيها ما وعدنا به ، بعد بذل ما فى الطاقة من المشقه . »
« ولا يخفى أن أصل تصدينا لانشاء هذه المدرسة ، حب »
« ايصال النفع الى الوطن ، الذى حبه من الايمان ، وتقليل »
« التقرب فى بلاد أوربا حيث لا يتيسر لكل انسان ، والنصح »
« فى الخدمة ... فان خدمة مصر ، فريدةالعصر ، دار هجره »
« الفهم ، المبرزة لكل شهم ، من خـير ما أفتى به اللبيب »
« وافتتن ، واعتنى به واقتناهذخيرةللزمن ، بل هو فرض على »
« من كان من بنيها ، أو مســتوطنا فيها ، جعلنا الله بارين ، »
« ومن أهل العقوق بريئين ... » [1] .

واكتملت رسالة مدرسة الألسن بانشـــاء قلم الترجمة عام ١٢٥٧ هـ (١٨٤١ م) ، أى بعد قيامها بست سنوات ، وكانت النية متجهة الى انشائه منذ البـــداية ليجمع خريجيها فى هيئة واحدة تقوم بترجمـــة الكتب المطلوبة تحت اشراف أساتذة مختصين بشتى العلوم والفنون المترجمة [2] .

وألحق القلم بها وصار جزءا من ادارتها يشرف عليه رفاعة

(١) بدوى : رفاعة ص ٤٥ ، ٤٦
(٢) المصدر السابق : ص ٤٧

كما يشرف على كل ملحقاتها الأخرى ، وتراجع أعماله كل عام اللجنة المنعقدة لامتحان طلاب المدرسة لتثبيت المجد وتنقص من مرتب المقصر ، وكان ديوان المدارس يوافيها بالجديد من الكتب التى تحتاج اليها المدارس الخصوصية ليرى رفاعة ما يترجم منها فيعهد بها الى مترجمى القلم كل فى فرعه .

وكان قلم الترجمة فى بداية انشائه من أربعة أقسام : الأول لترجمة الرياضيات ويرأسه « محمد بيومى افندى » ، والثانى للعلوم الطبية والطبيعية ويرأسه « مصطفى واطى افندى » ، والثالث للعلوم الاجتماعية ورئيسه « خليفة محمود افندى » ، والرابع للترجمة التركية برئاسة « ميناس افندى » .

وفى عام ١٢٦٤ هـ (١٨٤٧ م) أعيد تنظيم قلم الترجمة الى قسمين : أحدهما للترجمة العربية تحت اشراف رفاعة والآخر للتركية باشراف « كيانى بك » وقد عهد اليه بادارة القسمين ، وظل القلم قائماً حتى ألغى فى أوائل حكم عباس ، كما ألغيت مدرسة الألسن هى الأخرى فى محرم سنة ١٢٦٦ هـ (نوفمبر ١٨٤٩ م) .

وانتهت فترة جليلة من حياة المعلم كان لها أبعد الأثر فى نهضة البلاد الفكرية ، واتصالها بالثقافة الغربية اتصالا مثمرا ينم عنه ما قام به أبناء هذه المدرسة من ترجمات نيفت على ألفى كتاب [1] ، وما اضطلعوا به من أعمال فى دوائر الحكومة نبهوا فيها ونبه شأنهم بها .

---

(١) تراجم مصرية وغربية ص ١٠٣

ولم تتصل حياة المعلم بمثل هـــذا العمل الجليل فى ميدان التعليم من بعد ، فكان كل ما أسند اليه فى هذا الميدان دون كفايته وجهده ، وان قام به على خير ما عرف عنه من حمية ، أملا فى أن تنبض تلك الأعمال بما كانت تنبض به مدرسة الألسن من حيوية ونشاط أو أن تسير فى الاتجاه الذى يحقق رسالته فى تعليم المصريين ..

وبالغاء مدرسة الألسن اســتهل المعلم الطور الجديد من حياته بمحنة أمضته وان لم تعق جهده وحيويته ، اذ عين ناظراً لمدرسة ابتدائية ينشئها فى الســـودان « اقاذا لأولاد أهلها ، والمستوطنين بها من جحيم الجهل ، فيمتازوا باكتساب العلوم والمعـــارف » بحجة أنه ملم بأصـــول المدارس لينســـقها كما ينبغى ، وينظمها نظاما حسنا »[1] .

ويقال ان نية عباس لم تكن صادقة فى هـــذا العمل وانما قصد به ابعاد رفاعة عن مصر لما فى كتابه « تخليص الأبريز » من آراء لا تعجب الحاكم المستبد كما يرى المؤرخ عبد الرحمن الرافعى[2] ، وان رده عـــزت عبد الكريم الى ما كان من غيرة على مبارك لما أصاب رفاعة من توفيق وهو ممن قربهم عباس اليه ، أو لما كان من معارضة بعد المتعصبين من المشايخ الذين عدوه متطفلا على ميدانهم فى دراســـة الشريعة والفقه[3] . أما

---

(١) تاريخ التعليم فى مصر جـ ١ ص ١١٤
(٢) مصر محمد على ص ٣٩٦
(٣) تاريخ التعليم فى مصر جـ ١ ص ٥٨

رفاعة فيقول: ان بعض الأمراء سعوا بينه وبين عباس بالوشاية. ولكنه لم يذكر من هم هؤلاء الوشاة :

« وما خلت العزيز بريد ذلى
ولا يصغى لأخصـــام لداد »
« لديه سعوا بألســـنة حداد
فكيف صغى لألسنة حداد» [1]

وان كنا نعتقـــد أن عباسا حين أبعد رفاعة وصـــحبه الى الخرطوم لم يفكر فى تخليص الأبريز .. أو يستمع لواش ، وانما كان يجرى جريه فى هذا الأمر على ما كان عليه من سوء الظن بالنابهين ، وما جرى عليه من اغلاق المدارس وتعطيل الحركة العلمية ، ويبدو أن عباسا كان كارها لأهله وأسرته بدليل أنه حاول قتل عمته الأميرة « نازلى هانم » لولا هـــربها منه الى الآستانة . وما كان من عـــداوته لولى العهد ســـعيد واتهامه بالتآمر على حياته ولغيره من أمراء الأسرة ، ولعل كراهيته قد امتدت الى جده فكره رجال دولته ومن خدم منهم معه فقرب اليه « على مبارك » ولم يكن من رجال دولة محمد على وأبعد رفاعة وهو من أبرز الرجال الذين خدموا جده .

وقد بلغ رفاعة حينذاك من المكانة ما يحول دون اســـناد عمل صغير اليه فى مصر فاذا أسند اليه انشاء مدرسة ابتدائية فى الخرطوم فان ذلك مما يمكن أن يعد نواة لنشر التعليم فى

---

(۱) مناهج الالباب : مطلب سفرى للسودان ونظمى قصيدة .

السودان وهو عمل جليل قمين بكبار الرجال ، مما لا يلقى معه عباس لوما لارسال هذا الرجل النابه الذى قاد الحركة التعليمية فى مصر للنهوض بالتعليم فى السودان ، وفيه ما يحقق رغبته فى ابعاد رفاعة وأمثاله .

وواجه المعلم المحنة بالشكوى والألم مستسلما الى قضاء الله وقدره متمثلا بقول الشاعر :

فمـــا أنا للأيام غـــير محـــارب
أصـــاحبها مســـتبشرا منهللا
فان كان حظى راجحا كنت راجحا
وان كان حظى أعزلا كنت أعزلا

ثم يفكر فى مآثره وخدماته فلا يعرف أنه قصر أو فترت همته ، ولا يقبل على عمله هذا اقباله المعهـــود على كل عمل تولاه ، ويتسلى عنه « بتعريب تليماك [1] » ، حتى يرسل اليه ديوان المدارس بعد سنتين لم يوافه خلالهما بمـــا عمل يسأله « عما صار فى بحر هذه المدة من التعليمات ، وبيان ما اكتسبوه التلامذة من العلوم ، وما مقدار عددهم ، وبيان درجات كل منهم أيضا » [2] ، ورد رفاعة يقول : ان « التلامذة » هربوا الى الجبال ، وان المعلمين قد « توفى الله ثلاثة منهم الى رحمته » ، وأما المهمات فقد استولى عليها حكمدار السودان ووزعها على

(١) مقدمة مواقع الافلاك ص ٣
(٢) تاريخ التعليم فى مصر ص ١١٨

فرق الجيش ، وليست المدرسة الا « اسما بدون جسم » .
ويبعث عباس برسالة الى حكمدار الأقاليم السودانية يقول :
« وصل الى سمعنا وعلمنا فى هذين اليومين أن المدرسة »
« المقرر تأسيسها وانشاؤها فى بلده الخرطوم لتعليم وتعلم »
« أولاد الناس وصبيانهم : أهمل فتحها الى الآن . وحيث ان »
« رفاعة بك الذى تعين ناظرا للمدرسة المذكورة وأستاذا »
« أول لها توجه الى بلدة الخرطوم ووصل اليها من مدة مديدة »
« فالمأمول أن تبادروا بفتح المدرسة على حسب ما تقتضيه »
« ارادتنا وتباشروا تعليم وتعلم الصبيان أولاد الأهالى بلا »
« تأخير واهمال كما هو منظور فى درايتكم وقد حررنا لكم »
« لاجراء ايجابه » [1] .

وكتب ديوان المدارس الى رفاعة يطلب اليه الاهتمام بالمدرسة وموافاته بأحوالها ، فلم يجد بدا من العمل وانتظمت المدرسة « نحو تسعة شهور وتعلم فيها التلاميذ من أبناء المصريين القاطنين هناك طرفا من النحو والحساب والهندسة وحسن الخط » [2] .

ومضت المدرسة فى طريقها ، وكان عدد المنتظمين واحدا وثلاثين تلميذا ، ضم اليهم حكمدار السودان سبعة آخرين ، وخص رفاعة من توسم نجابتهم « بقراءة القرآن وحفظه ، وأعراب الاجرومية وحفظ مفردات وجمل تركية ، وخط الثلث

---

(١) تقويم النيل وعصر عباس وسعيد ص ٥٠
(٢) مناهج الالباب : مطلب سفرى للسودان ونظمى قصيدة .

والحســـاب ليكونوا قريبا مقـــدمين على أقرانهم وقلفــوات للمدرسة »[1] .

ولم يعد رفاعة الى مصر الا بعد وفاة عباس وتولية سعيد اذ أصدر أمره بالغاء المدرسة ولما يمض على توليته سبعة أيام ، وفى القاهرة سعى الى صديقه « ابراهيم أدهم بك » وكان سعيد قد عهد اليه بتفتيش عموم المهمات والمدارس ، فعملا سويا فى مشروع انشاء « مكاتب الملة » لنشر التعليم بين سواد الشعب ، واقترح أدهم تعيين رفاعة ناظراً عاما على هذه المكاتب ، ولكن المشروع لم يحظ بالتفات سعيد وبقى رفاعة بلا عمل ، فالتمس أن يقيد بديوان المحافظة أو أى عمل آخر ليقوم بترجمة الكتب النافعة ، فعين مترجما بديوان المحافظة تحت رياسة أدهم وكان قد عين محافظا للقاهرة بعد الغاء ديوان المدارس . ولم يمض على ذلك شهر حتى عين « ناظراً ثانيا » للمدرسة الحربية بالصلبية « تحت رئاســـة ســـليمان باشا الفرنســـاوى رئيس رجال الجهادية »[2] . ثم رأى سعيد انشاء مدرسة حربية لاعداد ضباط أركان حرب للجيش وعهد بذلك الى سليمان باشا الفرنساوى فقام بانشائها بالقلعـــة عام ١٢٧٧ هـ (١٨٥٦ م) ، وبعد قليل التمس احالته على التقاعد فعين رفاعة ناظرا لها .

وبدأت حياة المعلم من جـــديد على النسق الذى يهـــوى ويرضى آماله ومراميه ، فأراد أن يحيى فى مدرسة أركان الحرب

---

(١) تاريخ التعليم فى مصر ص ١٢٢
(٢) حلية الزمن ص ٣٩

مدرسة الألسن القديمة فتكون مركزا للثقافة والاشعاع الفكرى فى مصر ، فعرض على الطلاب دراسة اللغة العربية وترك لهم حرية اختيار احدى اللغتين الشرقيتين الفارسية أو التركية ، واحدى اللغات الأوروبية الانجليزية أو الفرنسية أو الألمانية [١] ، ولم يلبث أن أنشأ بها قسما للمحاسبة وقلما للترجمة عهد برئاسته الى تلميذ نابه من تلاميذه القدامى فى مدرسة الألسن هو « السيد صالح مجدى » كاتب سيرته ومناقبه فيما بعد ، وكان من الضالعين فى ترجمة كتب الرياضيات والفنون الحربية .

ولم يكتف رفاعة بالترجمة بل عمد الى احياء التراث القديم « لرغبته — كما يقول على مبارك — فى نشر العلوم وسعه دائرتها وحبه عموم النفع بها » [٢] فسعى حتى صدر « الأمر بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة عم الانتفاع بها فى الأزهر وغيره ، منها تفسير الفخر الرازى ، ومعاهد التنصيص ، وخزانه الأدب ، والمقامات الحريرية ، وغير ذلك من الكتب التى كانت عديمة الوجود فى ذلك الوقت » [٣] .

وعهد اليه بنظارة مدرستى الهندسة الملكية والعمارة وتفتيش مصلحة الأبنية ، وأصبح رفاعة للمرة الثانية مهيمنا على شئون التعليم فى مصر . ولكنه واجه البطالة من جديد ، ففى عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦١ م) ألغيت المدرسة بعد خمس سنوات من انشائها وبعد أن ظهرت ثمرتها «ونجابة تلامذتها واستفادتهم

---

(١) الشيال : رفاعة ص ٤٤

(٢ ، ٣) الخطط جـ ١٣ ص ٥٥

استفادة جيدة فى أقرب وقت » كما يقول على مبارك . وبقى متعطلا قرابة سنتين ، حتى تولى اسماعيل فأعاد ديوان المدارس ، وعين رفاعة عضوا فى « قومسيون الديوان » للنظر فيما يجب نحو افتتاح المدارس الجديدة [1] . وانتهت مهمته بافتتاح تلك المدارس ، كما عين عضواً فى القومسيون المؤلف للنظر فى لائحة على مبارك لتنظيم المكاتب الأهلية ، وعرفت باللائحة الرجبية لصدورها فى رجب سنة ١٢٨٤ هـ ، وانتهت مهمته بانتهاء الغرض الذى شكل من أجله ، الا أن على مبارك رأى وجود قومسيون دائم بديوان المدارس للاشراف على المكاتب والنظر فى شئونها وأهمها تقارير المفتشين واقتراحاتهم [2] » فكان يعهد الى رفاعة رئاسة مجلس المكاتب الأهلية « المقتضى انعقاده للنظر فى حال المدارس والمكاتب الأهلية وادخالهم تحت رابطة حسنة كما مرغوب الخديو » ، وطلب اليه أن يحضر فى كل يوم الى مقر عمله بالديوان [3] ، كما كان يشترك فى بعض اللجان للنظر فيما ينشأ من مدارس ويشرف على تدريس اللغة العربية فيختار لها المدرسين ويقوم بتوجيههم الى أحدث طرق التدريس ويقرر الكتب اللازمة لتدريسها فى كل مدرسة ، فضلا عن رئاسته لكثير من لجان امتحانات المدارس الأجنبية والمصرية ، وكان الامتحان الذى عقد بمدرسة أسيوط فى رجب سنة ١٢٨٨

---

(١) تاريخ التعليم فى مصر : عصر اسماعيل ص ١٢١

(٢) بدوى : رفاعة ص ٦٢

(٣) تاريخ التعليم فى مصر : عصر اسماعيل ص ١٢٤

وآخر ما أشرف عليه منها . وكانت خطبته فيها آخر خطبة له [1] .

وكان أبرز ما عهد اليه فى عهد اسماعيل نظارته لقلم الترجمة الذى أنشىء سنة ١٨٦٣ لترجمة القوانين الفرنسية ، ولم يكن هناك من المترجمين غير تلاميذه فى مدرسة الألسن القديمة فاختار منهم عبد الله السيد ، وصالح مجدى ، ومحمد قدرى ، ومحمد لاظ ، وعبد الله أبو السعود [2] وهم جميعا من المشهود لهم فى الترجمة ومن أنبغ خريجى المدرسة ، ولهم فضل مأثور فى الحركة الفكرية التى ازدهرت فى عصر اسماعيل .

واحتل القلم غرفة فى مبنى ديوان المدارس ، وقام بترجمة القانون الفرنسى تحت اشراف رفاعة ، ووسعت الترجمة مجلدات عديدة طبعت فى مطبعة بولاق .

ولم يلق القلم اهتماما من المسئولين رغم كثرة أعبائه ، فالى ترجمة القانون الفرنسى كان يقوم بترجمة الدستور العثمانى والجريدة العسكرية وحسابات البعثة المصرية بباريس ، فضلا عن ترجمة كتاب رفاعة فى تاريخ مصر الى اللغة التركية ، فلما طلب اليه ترجمة الأجزاء الباقية من جغرافية ملطبرون ، اعتذر رفاعة – رغم حبه لهذا العمل – بأن القلم لم يبق به غير ثلاثة من المترجمين هم عبد الله أبو السعود ، وصالح مجدى ، وحسن الجبيلى [3] ؟ ولعله كان يأمل أن تقوم الى جانب القلم المدرسة

---

(١) بدوى : رفاعة ص ٦٤

(٢) الشيال : رفاعة ص ٤٦

(٣) المصدر السابق ص ٤٧

التى تمـده بالمترجمين ، ولكن مدرسة الألسن الجـديدة التى أنشئت عام ١٨٦٨ وعرفت باسم مدرسة الادارة والألسن كانت غير مدرسة الألسن القـديمة ، فاقتصرت مهمتها على دراسـة القوانين واعداد القضـاة ، فلما بدت الحاجة الى المترجمـين وأنشئت لهذا الغرض « مدرسة الألسن » سنة ١٨٧٨ ، كانت قد مضت خمس سنوات على وفاة رفاعة .

ولكن هـل وقفت حياة المعلم على المـدارس ووظائف التدريس ؟ اذن لمضى كما يمضى غيره معلماً من المعلمين النابهين أو موظفا كبيرا من موظفى المعارف فحسب ، ولكن الرجل كان غير ذلك فقد امتد بفكره وآرائه الى آفاق أرحب هى التى خلدت ذكره وان بقيت له صفة المعلم فى كل حال .

وبقى له مع ذلك جانب من عمله الحكومى أثمر على يديه ما أثمرته أعماله فى وظائف التعليم والترجمة ، وهو عمـله فى « الوقائع المصرية » ، وفى « روضـة المدارس » أو عمله فى الصحافة ان شئنا أن نسـميه بلغة العصر ، فلم تكن الوقائع وروضة المدارس غير جريدتين حكوميتين يغلب عليهما الطابع الرسمى وان خاضتا فى كثير من المسائل العامة التى لا تقلق بال الحكومة .

وقد صـدرت الوقائع المصرية فى جمـادى الأولى سنة ١٢٤٤ هـ (ديسمبر ١٨٢٨ م) بعدما أنشىء قلم الوقائع فى رجب سنة ١٢٤٤ هـ لطبع ونشر « خلاصة خصوصية عن الوقائع التى

تحصل بالجهات » [1] ومن الطبيعى ألا تنشر الوقائع ما ينقص من هيبة الدولة ، فلما نشرت خبرا « عن حادث بين بكباشى الأورطه بدمياط وبين البولك أمين » [2] لم يرض محمد على عن نشر الخبر » وأرسل الى ناظر الجهادية يأخذ عليه نشر أخبار لم يكن ليحسن نشرها بجريدة الوقائع ، ويطلب معاقبة من عملوا على نشره [3] . كما غضب « سر العسكر ابراهيم باشا » من خبر نشرته عن « عدم صرف أحذية للأولاد الموجودين بحديقة شبرا » [4] فقد أنشأ محمد على الوقائع لتنوه بأفضاله وتذكر مآثره . وتعرف المصريين ــ كما قيل ــ على « الحال والزمان » وتلفت نظرهم الى « الأمور الدقيقة الحاصلة من مصالح الزراعة والحراثة وباقى أنواع الصنايع التى باستعمالها يأتى الرخاء والتيسير [5] » .

فلم تكن الوقائع اذن غير جريدة رسمية ، وما كان لرفاعة أن يتعدى هذا النطاق المرسوم لها ، وهو ما لم يعده فى كل عمل تولاه طوال حياته ، ولكن العمل كان يتحول على يديه الى شىء مثمر دون أن يتجاوز الحدود المرسومة لحرية الرأى ، كما كان فى « تخليص الابريز » ، فنراه يشيد بأفضال الوالى ومآثر ولى النعم ، ولا يرى فى هذا ما يحول بينه وبين التعرض لموضوعات والتنويه باتجاهات وآراء قد لا ترضى الحاكم

---

(١) تاريخ الوقائع المصرية ص ٢٧
(٢) المصدر السابق ص ٥٨
(٣ ، ٤) المصدر السابق ص ٥٨
(٥) المصدر السابق ص ٦٢

المستبد ، فاذا تحدث عن السياسة والحكم فى فرنسا فان الدستور الفرنسى ليس مما فى كتاب الله تعالى ولا فى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم » ولكنه من وحى عقولهم التى « حكمت بأن العدل والانصاف من أسباب تعمير الممالك » [1] ومعناه أن حكم الشريعة أوفى وأعدل ، وهو ما يفصح عنه بعد ذلك بعشرين عاما حين تولى تحرير الوقائع المصرية فيقول فى الرد على اتهام الغربيين لملوك الشرق وأمرائه بالاستبداد « ان حاكم الشرق المسلم يستمد حكمه من ارادة الله وشريعته وهى خير ضمان للعدل واستقامة الأمور فى البلاد الاسلامية ومنها مصر » فاذا ظن الأجانب بملوك الشرق وأمرائه استبدادا فانه « ظن من لا معرفة له أن ما يفعله حكام الاسلام لا وجه له فى الشرع ، وقل أن يقدم ملك اسلامى على ما يخالف صراحة كتاب الله وسنة رسوله » [2] .

ويبدو أن رفاعة حين يسوق تلك الحقائق والآراء عن السياسة التى يسميها « البوليتيقا » والسياسيين وأنواع الحكم من « دمقراطية وأرستقراطية وموnرخية [3] ومختلطة أى مركبة [4] » كان يتوقى غضب الحاكم بمدحه والاشادة بعمله ومآثره على العمران والتقدم ، مما يجرى ذكره على لسان الناس كما جرى ذكر من قبله ، فقد اشتهر الوليد بالضياع والمصانع فغدا ذكر

(١) تخليص الابريز : الفصل الثالث من المقالة الثانية .
(٢) تاريخ الوقائع المصرية ص ٩٨
(٣) الوقائع المصرية عدد ٦٢٣ غرة ربيع آخر ١٢٥٨ هـ ، وتاريخ الوقائع المصرية ص ٩٦
(٤) ترجمة رفاعة لكلمة **Monarchie**

ثرائه ونشاطه الصناعي على شفاه الناس الذين أخذوا يتساءلون عن «الدنيا والمصانع والصنايع وشق الأنهار وغرس الأشجار» فلما ولي عمر بن عبد العزيز « كان الناس يتساءلون : كم تحفظ من القرآن ؟ ومتى تختم ؟ وكم وردك كل ليلة ؟ وكم تصوم من الشهر ؟ » ، فاذا كان عبد الملك وكان « صاحب طعام ونكاح ، كان الناس يتساءلون ويتحدثون بالأطعمة اللذيذة ، والثياب الرفيعة ، ويتغالون فى المناكح والسرارى» [1] . وكأنه يريد أن يقول ان الناس على دين ملوكهم ، « وآمال الموالى فى مصر متعلقة بالمعمار » [2] فليس اذن من حديث للناس فى مصر الا العمران والاشادة بمآثر الوالى ، وأفضاله على البلاد .

وكان رفاعة يكتفى بالعرض دون التعليق وخاصة فيما يتصل بالسياسة فاذا تحدث عن الدستور الفرنسى مثلا أو أنظمة الحكم التى عرفها فى أوربا فانه يتحدث عنها بالنسبة للأوربيين ولا يذكر شيئا عن ملاءمتها للشرق مما خاص فيه بعد ذلك أحمد لطفى السيد محبذا ومؤيدا له فى مصر . ولعل رفاعة كان يترك للناس أن يدركوا ما لم يقله صراحة .

كانت تلك المقالة التى ساقها رفاعة فى الوقائع المصرية حين أشرف على تحريرها تطورا خطيرا فى موضوعاتها فقد انتقلت فجأة من « توافه الأخبار والحوادث والافتتاحيات الثقيلة

---

(١) المصدران السابقان .
(٢) تخليص الابريز : الفصل السابق .

المحشوة مديحا وثناء للوالى بمبرر وبغير مبرر الى موضوعات رئيسية لها خطرها لا فى الشرق وحده ، بل فى أوربا فى ذلك الوقت » [1] .

وهكذا امتد أثر الرجل الى ناحية خطيرة من نواحى الفكر ، لعله ان تحدث بها الى تلاميذ مدرسة الألسن ، فاله فى الوقائع يتوجه بالحديث الى الرأى العام القارىء فى مصر .

وأخذت الوقائع لونا جديدا على يد رفاعة فأخذت اللغة العربية مكان الصدارة الى اليمين محل اللغة التركية وتضمنت أعدادها « سطوراً لنشر ما له علاقة بالأدب ، على أنها لم تنشر جديداً على ما قاله القدماء بل أعادت اذاعة ما قالوه فى الماضى» الى بعض قصـــائد شعرية « هى أول ما قيل من شـــعر فى الوقائع » [2] ، وهو ما نلحظه من اتجاهات رفاعة فى كتابة تخليص الابريز ، فلم تكن تفوته مناسبة الا ويردفها بشىء من شعره أو عا يؤثر من شعر السابقين .

ولم تمض الوقائع طويلا على هذه الصورة التى أرادها رفاعة رغم قيامه عليها ، فبعد عام ١٢٥٨ هـ عادت اللغة العربية الى اليســـار واحتلت التركيـــة مكانها الأول من التـــكريم والاعتبار [3] ، وانصرفت عما بدأته من ألوان الشعر والأدب الى نشر الأخبار الرسمية والمحلية فقد أمر محمد على ألا يكتب فيها

---

(١) تاريخ الوقائع المصرية ص ٩٦
(٢) تاريخ الوقائع المصرية ص ٩٩
(٣) المصدر السابق ص ١٠٠

« شيء يختص بالسياسة بل يجب انحصارها فى أخبار ما يحفر من الترع وما ينشأ من الجسور والقناطر وفى أنباء العزل والنصب وكذلك أنباء السفن التى من الخارج » ويرد ابراهيم عبده حرمان الوقائع من الموضوعات السياسية الى نتائج « الأزمة المصرية سنة ١٨٤٠ التى انتهت بتحديد استقلال مصر ، وحرمانها من مكانها الدولى المعروف لها من قبل ، فأصبح من المتعذر على الحكومة المصرية أن تجيز لصحيفتها نشر أخبار أوربا السياسية والتعليق عليها بما قد يسيء الى أى دولة من دولها وان أباحت نشر أخبار تلك الأمم مجردة لا رأى لها فيها » [1] وان كنا نرد ذلك الى ارادة الوالى الذى لا يرضى عن نشر تلك الموضوعات التى تنبه الجماهير الى استبداد الحاكم [2] .

ولا نلحظ لرفاعة بعد ذلك رأيا أو جهدا فى الوقائع ينم عن اتجاهاته وأفكاره التى بدأ ينشرها فى تلك الفترة التى لم « يزد تحريره فيها على عدة أعداد من أعدادها الكثار [3] حتى أقصى عنها فى أوائل حكم عباس .

ويبقى رفاعة بعيدا عن الصحافة والصحف حتى أنشأ اسماعيل فيما أنشأه من صحف ، مجلة أدبية دعاها « روضة المدارس » للنهضة باللغة العربية واحياء الأدب العربى ونشر

---

(١) المصدر السابق ص ١٠١ نقلا عن محفوظات عابدين وثيقة رقم ٢ دفتر رقم ٢٠٩٦ ص ١٤١ مدارس تركى فى ٣ جمادى الأولى سنة ١٢٦٠

(٢) المصدر السابق ص ١٠١

(٣) أعلام الصحافة العربية ص ٢٣

المعارف الحديثة [1] . ورأى على مبارك مدير ديوان المدارس أن يعهد بها الى رفاعة فان « رفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس هو المشار اليه بين أرباب المعارف بالبنان ، والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل انسان ، تاسب أن تجعل هذه الصحيفة تحت نظارته ، لتتحلى من معلوماته بالدر الثمين ، وينشر علمها فيتلقاه محب المعارف باليمين » [2] . وتولى ابنه « على بك فهمى رفاعة » مدرس الانشـــاء بمدرســـة الادارة والألسن رياســـة تحريرها ، واتخذت المجلة شعارا لها بيتين من الشعر هما :

تعـــلم العلم واقـــرأ تحـــز فخار النبـــوة
فالله قال ليحيى : «خذ الكتاب بقوة »

وصدر أول أعدادها يوم السبت ١٥ محرم ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠م) مفتتحا بمقال رئيس التحرير « على فهمى رفاعة » عن أهدافها ومراميها ورسالتها فان « جل مرغوب ديوان المدارس المصرية ، — تعميم العلوم وتتميم المعـــارف ، وانتشار الفنون واكثار اللطائف ، ومداولتها بين جميع أبناء الوطن ، وتســـويتهم فى الورود على مستعذب هـــذا المشرع الحسن ، وابراز المسائل المعينة على جلب قطافها بدون مشقة ، واحراز الوسائل المسهلة لجذب أطرافها ولو بكثير نفقة ... فقد أبرز فى هـــذه الأيام السعيدة ، لحرصـــه دائما على ابداء كل طريفـــة من المحاسن وتليدة ... صحيفة تعنون باسم روضـــة المدارس على هيئة

(١) المصدر السابق ص ٢٣
(٢) روضة المدارس عدد ٢

مجموعة ، يتقيد فى جريدتها أى مادة علمية من المواد النفائس ، بحيث تكون فيها الفوائد المتنوعة ، والمسائل المتأصلة والمتفرعة أقرب تناولا للمطلع المستفيد ، وأسهل مأخـذا لمن يعانيها من قريب الفهم والبعيد ... فان المرام من ظهورها بهـذه الصورة هو أن تنكشف للعامة مخدرات العلوم وترفع حجبها المستورة ... وعلى الخصوص بين أبناء المدارس المستظلين بظلالها الوارفة، المتمتعين فى ساحتها بأجزل نعمة ، وأجزل عارفة ، فانها تكون بالنسبة لهم ولغيرهم أعم نفعا ، وأعظم وقعا ، بما انطوت عليه من نشر الفوائد العلمية الفائقة ، وذكر جوامع الكلم الحكيمة الرائقة ، ورقائق الفضلاء العصريين ، ورقائق العلماء الماضين ، حتى تتسـع دائرةعقولهم ومنقـولهم ، وتمتلىء من زواهـر الفنون ، وجـواهر العلوم حقيبة عقـولهم ، مع ما يزيد فى رغباتهم ، ويبعثهم على ازدياد اهتماماتهم ، اذا علم كل منهم أن ما يظهر من أعماله المستحقة ، ويشهر من أشغاله الدائرة على الأفئدة والألسنة ، سيقيـد بهذه الصحيفة ، وتلمسـه أيدى أفاضل شريفة ، ويذكر فيها اسمه وحليته ورسمه ، فتزداد حينئذ رغبته ، وتقوى على عظائم الأمور همته ، وقد تنزهت صحيفتنا هذه مما سوى ما يخص نشر فائدة علمية ، ومحمدة أثرية ، مما يقع عليه الاختيار ، ولا ضرر فيه ولا ضرار ، فليس من وظائفها تقييد الأحوال السياسية الوقتية ، والأفعال الرئاسية والادارية ... ومما يشهر فضل هذه الصحيفة ويعلى قدرها ... أن سعادة مدير المدارس جعلها ملحوظة بنظر نظارته ... وقد تكفل لها

عدة من العلماء الأساتذة والفضلاء الجهابذة ، بامدادها برسائل مؤلفة جديدة ، ونبذ مصنفة مفيدة ، من فنون وعلوم مختلفة ، ومسامرات من مستحسن الحكايات والأخبار مقتطفة ، وبعض تراجم من لغات أجنبية ، واخراجها فى قالب سهل من أساليب العربية ، وصار كل منهم برسم عضو تأسيسى » .

ويمضى رئيس التحرير فيذكر بعض هؤلاء الأعضاء ؛ فمنهم « عبد الله بك فكرى » الذى أحيل عليه العلوم العربية والفنون الأدبية ، وبروكش ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم وخص بالتاريخ ، واسماعيل الفلكى بك وعهد اليه بالفلك ، ومحمد قدرى افندى وخص بالجغرافية والأخلاق والعقائد ، وأحمد افندى ندا وعهد اليه ببيان المواد النباتية ، والشيخ عثمان مدوخ وطلب اليه امداد المجلة بغرائب النوادر والمضحكات والألغاز والأحاجى والنكات ، وأحيل على مباشر تحريرها الكلام عن محروسة مصر القاهرة ، وذكر أخطاطها وشوارعها ، وأحيلت كافة العلوم الرياضية على خوجات المدارس الملكية ، وما يرد منهم فى القابل يذكر باسم صاحبه ، حتى لا يضيع عمل عامل » [1] .

فروضة المدارس مجلة أنشئت لنشر الثقافة العامة بين أبناء الوطن « وتسويتهم فى الورود » اليها ، وليس لها أن تخوض فى السياسة أو فى أعمال الحكومة ، حشد لها ديوان المدارس أبرز علماء العصر ومفكريه كل فى ميدانه وفى مجال تخصصه ،

(١) افتتاحية العدد الاول .

وما منهم الا وهو صاحب فضل على النهضة العلمية والفكرية فى البلاد ، فعبد الله فكرى هو الأديب الشاعر عبد الله باشا فكرى وزير المعارف فى وزارة محمود سامى البارودى التى عارضت الخديو توفيق واستقالت احتجاجا على مسلكه فى مايو ١٨٨٢ [١] . واسماعيل الفلكى هو اسماعيل باشا مصطفى الفلكى العالم الرياضى والفلكى تلميذ محمود باشا الفلكى وناظر الرصدخانة ومدرسة المهندسخانة فى عصر اسماعيل [٢] ، ومحمد افندى قدرى ، هو المشرع محمد باشا قدرى صاحب المؤلفات التى لا يستغنى عنها قانونى حتى اليوم [٣] . ووزير الحقانية فى وزارة شريف الدستورية سنة ١٨٨١ ووزير المعارف فى وزارته الرابعة التى استقالت احتجاجا على اخلاء السودان ، وصاحب مشروع النظام القضائى للمحاكم الأهلية الجديدة ، وأحمد افندى ندا هو أحمد بك ندا من تلاميذ البعثة الخامسة فى عصر محمد على لدراسة العلوم الكيماوية وعين بعد عودته أستاذا فى مدرسة الطب والمهندسخانة وأركان الحرب ، ومن مترجماته « حسن البراعة فى علم الزراعة » عن الفرنسية « لفيجرى بك » ومن مؤلفاته « حسن الصناعة فى علم الزراعة » و « الآيات البينات فى علم النبات » و « الحجج البينات فى علم الحيوان » و « الأقوال المرضية فى علم الطبقات الأرضية » [٤] .

---

(١) عصر اسماعيل حـ ١ ص ٢٧٥
(٢) المصدر السابق ص ٢٨٥
(٣) تراجم مصرية وعربية : ترجمة محمد قدرى باشا .
(٤) عصر محمد على ص ٤٣٤

وضمت المجلة اليها بعد صدورها السيد صالح مجدى وكيل ديوان المدارس ، والشيخ حسونة النواوى الحنفى مدرس علمى الفقه والكلام بمدرسة الادارة والألسن ، وأسهم فى تحريرها آخرون من العلماء والأدباء منهم محمود باشا الفلكى ، والشيخ حسين المرصفى ، والطبيب المشهور الدكتور محمد بك بدر ، والشيخ عبد الهادى نجا الأبيارى ، ويصفه على مبارك « بالخبر الهمام وفخر العلماء الأعلام ، الامام الأريب ، واللوذعى الأديب، الشاعر الناثر ، الحافظ الماهر العلامة الشيخ عبد الهادى نجا » وعبد الله أبو السعود محرر جريدة وادى النيل ، والشيخ حمزة فتح الله اللغوى المعروف . وغدت بذلك مجمعا للفكر والعلم والأدب والفن طوال ثمانى سنوات صدرت خلالها ، لم يقض رفاعة منها غير ثلاث سنوات وشهرين .

وأفسحت المجلة من صفحاتها لطلاب المدارس ، وبرز من بينهم « الشاب النجيب اسماعيل افندى صبرى أحد تلامذة مدرسة الادارة » ناشرا لأشعار ندت عن موهبة شعرية استوت على الزمن باقة عبقة فى روضة الشعر الحديث ومما نشره فيها قصيدة مطلعها :

أغرتك الغراء أم طلعة البدر
وقامتك الهيفاء أم عادل السمر

وشعرك أم ليل تراخى سدوله
وثغرك أم عقد تنظم من در

وأخرى استهلالها :

لا والهوى العـــذرى والوجد
عذل عـــذولى فيك لا يجـــدى
انى مع الصـــد وطـــول الجفـــا
باق على الميثـــاق والعهـــد

ودرجت المجلة على أن تلحق بأعدادها كتبا ألفت لها [١] . على أجزاء مع كل عدد جزء من أجزائه ، فنشر كتاب « حقائق الأخبار فى أوصاف البحار » لعلى مبارك ، و « آثار الأفكار ومنثور الأزهار » لعبد الله فكرى ، و « الصحة التامة والمنحة العامة » للدكتور محمد بدر ، و «المباحث البينات فيما يتعلق بالنبات » و « بهجة المطالب فى علم الكواكب » . وألحق رفاعة بالعدد السادس من الســـنة الأولى رسالته الوجيزة المســـماة « القول السديد فى الاجتهاد والتقليد » .

وكان رفاعة قد نيف على السبعين حين ولى أمور روضة المدارس ، ولكن شعلة فكره الوقاد لم تخبُ على الزمن ، ولم ينل من عزيمته وهن الشيخوخة فكان يطالع قراء الروضة بين حين وآخر بنفثات قلمـــه على طريقته من الكتابة الموسوعية والفكرة الموجهة ، فنراه يترجم « لكسرى أنو شروان » على عدة أعداد ، كما يكتب فى تاريخ بركة الأزبكية منـــذ حفرها « المعز الأتابكى أزبك بن الظاهرى » ســـنة ٨٨٠ هـ ، الذى

---

(١) بدوى : رفاعة ص ٧٤

دعيت باسمه وكيف تحولت الى بستان عظيم ، ويروى كعادته ما قيل فيها من شعر ، ومن مقالاته الموجهة مقال عنوانه « بقاء حسن الذكر باستخدام الفكر » وآخر اسمه « احسان السيرة باخلاص السريرة » . ولكن السنة الثانية تمضى دون أن يكتب شيئا ، فاذا كانت السنة الثالثة ينشر على أعداد متتابعة كتابه « نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز » وكان آخر ما ألف ، واستمرت المجلة فى نشره بعد وفاته . أما آخر مقال نشر له فقد كتبه على لسان المدارس الملكية والمكاتب الأهلية بمناسبة توزيع الجوائز فى آخر ذى القعدة سنة ١٢٨٩ هـ بالعدد الثانى والعشرين من السنة الثالثة .

واستمرت روضة المدارس تصدر بعد وفاته « تحت ادارة ناظر قلم الروضة ومطبوعات المعارف على بك فهمى نجل رفاعة بك » وهى العبارة التى تصدرت غلاف العدد الحادى والعشرين للسنة الرابعة [١] . وكأنما عز على الناس أن تصدر المجلة دون ذكر اسمه .

(١) بدوى : رفاعة : ص ٧٧

فى ميدان الفكر

عاش رفاعة طوال حياته يجوب آفاق الفكر محدد الغاية واضح الهدف مع ميل عارم أن يصـــدر بفكره الى الناس ، فغايته أن يعلم الناس ما تعلم وأن يهديهم بفكره الى الرشد من أمرهم منطلقا بهم من قيود الجمود التى رانت على عقولهم طويلا عساهم يتحررون من وقر المـــاضى الذى يقعد بهم عن التقدم والنهوض .

فلما كان طالبا بالأزهر كان تواقا الى أن يفيد الناس مما تعلم فنراه حين يؤوب الى بلده طهطا يعكف على تعليم الناس ما تعلم . فيقرأ عليهم بمسجد « جده سيدى أبى القاسم دروسا حافلة فى أوتار العشر الأواخر » من شهر رمضان ، كما يدرس فى « الجامع اليوســفى » ببندر ملوى « صـــغرى الصغرى للسنوسى » [1] .

ولعل ميله للكتابة كان منبعثا من ميله الى التعليم ، فأعظم غاياته ـــ كما نعتقد ـــ أن يعلم الناس ويهدى اليهم جديدا من المعرفة وجديدا من الفكر سواء عن طريق الكتابة أو الالقاء . فاذا كان قد حفى بالقاء دروسه على الناس وهو طالب بالأزهر

---

(١) حلية الزمن ص ٢٣ ، ٢٥

فقد كتب أيضا « أرجـوزة فى التوحيد بعد مدة يسيرة من انتظامه بالأزهر » [1] .

وقد يفسر لنا هذا ما اتسمت به كتاباته من طابع موسوعى ، فقـد كانت غايته أن يهـدى أبناء بلده من ضروب المعـرفة ما ينفعهم ، وأن يحفزهم الى طلب العلم والتعلم مما كان سببا فى سبق الغرب وتفـوقه . كما يفسر لنا اقباله على الترجمة ، وتعدد مناهج فكره وألوان كتاباته ، وبعـده الى حد ما عن التخصص الذى يقف بالكاتب على نهج معين أو فرع من فروع العلم ، ويفسر بالتالى ما أدخله على مدرسة الألسن من مناهج ودراسـات بعيـدة عن فن الترجمـة ، ودأبه على التأليف ومثـابرته على الكتـابة ، فلا نعـرف عنـه أنه أضـاع وقتا فى غير الكتابة أو التـأليف أو تعليـم أبنـائه من الطلاب ، فكانت دروسـه تمتـد ساعات ، ولا يقف دونها ليـل أو نهار . كما كان ديدنه فى مدرسة الألسن ، لا يحول بينه وبين عمله ودراساته جهـد أو ارهاق ، وقد عرفنا ما أصاب عينه اليسرى من كلال وضعف لم يستمع فيه الى نصيحة الطبيب خوف « تعويق تقدمه » ونوه به أستاذه شواليه دليـلا على غيرته ودأبه على التحصيل [2] . وكأنما كان يسابق الزمن أو يخشى أن تفوته الأيام دون أن يفى بغايته أو يؤدى رسالته . فالمعروف أنه ترجم مجلدا من جغرافية ملطبرون فى ستين يوما [3] ، وحين

---

(١) المصدر السابق ص ٢٥

(٢) تخليص الابريز : الفصل السادس من المقالة الرابعة .

(٣) حلية الزمن ص ٣٦

ألمت به محنة النزوح الى السودان فى عمل أدنى ، لم تفتر همته « فألف وترجم عدة كتب من ضمنها كتاب « تلماك » الذى طبع فى بيروت » [1] .

وظل الرجل طوال حياته عاكفا على ما وهب نفسه له وبقى الى آخر يوم فى عمره يطالع الناس بثمار فكره ، وكانت نهاية المطاف مع كتابه « نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز » وقد أخذ ينشره مسلسلا فى روضة المدارس ومات قبل أن يتم طبعه فقام ولده به وأضاف اليه جدولا بغزوات الرسول أراد رفاعة أن يختم به كتابه فقام به ابنه « على بك فهمى » .

وقد عرفنا المعلم وهو يرود بأبنائه آفاقا من المعرفة والمثل العليا ، ويغـرس فيهم الايمان بالعلم والتعلم لخير هـذا البلد ونهضته ، وعلينا أن نجوب معه آفاق فكره فيما ترجم وألف من كتب لتلاميذ المدارس وللناس عامة . ولا نحب أن نقف طويلا عند كتبه التى ترجمها لتلاميذ المدارس فانها لم تكن غاية جهده بقدر ما كانت لتعليم الناس وتثقيفهم بألوان من المعرفة الحديثة ، أو تتأنى أمام مؤلفاته الدراسـية وان نمت عن نهج جديد من التفكير الا أنها لا تصور آفاق الرجل ومطارح فكره ومراميه .

والسمة الغـالبة على مترجماته ومؤلفـاته هى السـمة الموسوعية ، فنراه يتنقل فى يسر وسهولة بين القديم والحديث ، وبين العلم والأدب ، ويجوب آفاق العلوم الانسانية والاجتماعية

(١) المصدر السابق ص ٣٨

فى شغف وأصالة تنم عن سعة اطلاعه وكثرة معارفه . ويبدو أنه كان قراء نهما تسعفه ذاكرة قوية تتداعى معهـا معارفه حرة طليقة فى استطراد لا يبعده عن جوهر الموضوع وغايته ، حافلة باستشهادات عديدة من الشعر وأحداث التاريخ فى رصانة تبتعد به عن التظرف أو محاولة النكتة الرائقة .

ولئن كانت الترجمة حرفته التى أعد لها وكلف بها وأقبل عليها واجتاز فيها امتحانا تقـدم اليه باثنى عشر مترجمـاً من الفرنسية الى العربية ، فقد كان التأليف هوايته ومناط فكره وآرائه ودراساته ، ولئن بدأ بالتأليف منذ كان طالبا بالأزهر وأقبل عليه بكتابة « تخليص الأبريز » فقد استوعبت الترجمة سنواته الأولى ، فما أن عاد الى مصر وعين مترجما بمدرسة الطب حتى ترجم ـــ كما يقال ـــ رسالة طبية لم يعثر عليها ، ولعلها بعض ما كان يلقى من دروس كلف بترجمتهـا الى العربية ، فمؤلف حلية الزمن يقول الله لم يقف عليها وان سمع «من بعض جلسـائه بذكرها » [1] ، ويرجح الشـيال انه كان فى المدرسة مصححا ومحررا أكثر منه مترجما ، وانه لم يترجم فى الطب غير الرسالة الصغيرة التى ضمنها رحلته [2] . كما ترجم كتبا أخرى أشرنا اليها فى الفصل السابق . أما ما لم نشر اليه منها فترجمة لكتاب دعاه « جغرافية صغيرة » طبع سنة ١٢٥٠ هـ ، وآخر سماه جغرافية عمومى فى كيفية الأرض » طبع سنة ١٢٥٤ هـ ،

---

(١) حلية الزمن ص ٣٥

(٢) تاريخ الترجمة والحركة الثقافية ص ١٣٢ – ١٣٣

وكتابا يقال ان اسمه « تاريخ المصريين القدماء » طبع فى نفس السنة ، أغلب الظن أنه كتاب « بداية القدماء ونهاية الحكماء » الذى قام بترجمته بعض طلاب مدرسة الألسن تحت اشرافه ، فكثيرا ما كان ينسب اليـه ترجمة ما راجعـه أو أشرف على ترجمته .

وفى السـودان شغل بترجمة مغامرات « تلمـاك [1] التى دعاها « مواقع الأفلاك فى أخبار تلماك » وهو كتاب لقسيس فرنسى يدعى « فنلون » كان مربيا « لدوق دى بورجونى » حفيد لويس الرابع عشر ، استقاه من الميثولوجيا اليونانية ليقرأه الأمير الشاب . فتنمو فضائله ويقوم اعوجاجه .

ويرى السيد صالح مجـدى أن رفاعة « قد تصرف فيه بالزيادة والنقص وأفرغه فى قالب العربية المنيف ، والتزم فيه السجع ، مع حسن الوضع حتى بدا كأنه لم ينسج له نظير على منوال ، وغدا من المؤلفات العديمة المثال » [2] .

وكان رفاعة حفياً بترجمة « تلماك » رأى فيه مسلاته فى الغربة ، وقال فى صدد ترجمته : ان تعريب تلماك بكل من فى حماك ، أو ليس انه مشتمل على الحكايات النفائس ، وفى ممالك أوربا وغيرها عليه منار التعليم فى المكاتب والمدارس ، فانه دون كل كتاب مشحون بأركان الآداب ومشتمل على ما به من كسب أخلاق النفوس الملكية ، وتدابير السياسات الملكية » [3] .

---

(1) Les Aventures De Télémaque.
(2) حلية الزمن ص ٣٩
(3) مواقع الأفلاك فى وقائع تلماك ص ٢٤

وقد نرى فى اقبال رفاعة على ترجمة « تلماك » فى محنته تنفيسا عما بصدره من عنت الحاكم المستبد الذى طوح به الى السودان ، فالكتاب فى مرماه تقويم للحاكم ونصح للسلطان وهو من هذا الأدب الرمزى فى نقد الحكم والاستبداد فى أوربا ابان يقظتها القومية ، وكثيرا ما عرض رفاعة للكتابة فى السياسة والحكم كما كان فى تخليص الابريز ، وكما أراد فى تحرير الوقائع المصرية لولا أن رأى محمد على أن تخوض الوقائع فى الشئون السياسية كما قدمنا .

وكتاب « مغامرات تلماك » أحد كتابين حظيا باهتمام رفاعة ، أما الثانى فهو كتاب « الجغرافية العمومية » لملطبرون وقد ترجم بعضا منه فى باريس ، فلما حل بطهطا كما قدمنا عام ١٢٥٠ هـ ترجم أحد مجلداته وقدمه الى محمد على فأثابه بالترقية الى رتبة « صاغ قول أغاسى » [1] ، وفى سنة ١٢٦٢ أتم ترجمة مجلد آخر ، أثيب عنه بالترقية الى رتبة « الأميرالاى » فصار يدعى رفاعة بك بعد أن كان يدعى الشيخ رفاعة [2]. وأكمل ترجمة أربعة مجلدات فلما طلب اليه فى عهد اسماعيل كما ذكرنا من قبل ترجمة الأجزاء الباقية اعتذر عنها بكثرة العمل وقلة عدد المترجمين فى قلم الترجمة وكان يأمل أن يكون لهذا القلم شأن آخر غير ما كان عليه ، فكان رد الفعل لاهماله هذا الاعتذار عن ترجمة ما تبقى منه رغم حبه له .

---

(١) عصر محمد على ص ٣٩٣

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٥

وكثيرا ما كان يمزج بين الترجمة والتأليف فيعمد الى ترجمة كتاب فلا يراه وافيا بقصده ، فيضيف اليه من معارفه ومما يترجمه عن كتب أخرى . فعندما بدأ بترجمة ما دعاه «التعريبات الشافية لمريد الجغرافية» لتلاميذ المدارس رآه قد أوجز جغرافية البلاد العربية وأسهب فى جغرافية أوربا ، فأخذ يكمل ما يتم به قصور الكتاب بالرجوع الى عدد من الكتب الفرنسية الأخرى ، فجاء الكتاب خلاصة وافية لعدد من المراجع الجغرافية. وأصبح وافيا — كما يقول — « بحاجة المدارس فى مصر وسائر بلاد الاسلام » .

وكان من عادة رفاعة أن يمهد للكتاب بمقدمة يبين فيها ماهية موضوعه ، وقد تناول فى مقدمة كتابه هذا فروع الجغرافية ، فما يعرض منها لشكل الأرض وصورتها وسكونها وحركتها ومكانها من النجوم والكواكب الأخرى فهو الجغرافية الرياضية ، فاذا تناول طبقاتها ومياهها ومعادنها ونباتها وما يعيش عليها من صنوف الحيوان فهو الجغرافية الطبيعية ، وهى جغرافية دينية اذا كان موضوعها الأديان والملل التى تنتشر على سطحها وهى جغرافية سياسية اذا ما تناولت الحكم والسياسة وتدبير الأمم ، فاذا قصرت على آداب أهل الأرض وأخلاقهم وعوائدهم وطباعهم وأحوالهم فهى جغرافية أدبية ، ولعلها كانت أول محاولة فى العربية لتعريف الجغرافية وأقسامها الحديثة.

ومن قبيل « التعريبات الشافية ... » — رسالة فى جغرافية بلاد الشام — يقول انه رجع فى كتابتها الى كثير من الكتب

(الفرنساوية والعربية) عول فيها على كتاب ملطبرون وعلى قاموس « مسليه » فى ذكر البلدان وما يتعلق بها .

فاذا تتبعنا ترجماته الأخرى نراه قد ترجم وهو فى باريس كتاب « دبنج » أخلاق الأمم وعوائدها » [1] — ولعله قد أقبل عليه من باب المران على الترجمة فى موضوع فيه بعض الطرافة ، وقد دعاه حينذاك « دائرة العلوم فى أخلاق الأمم وعوائدها » ، ولكنه اختار له عند طبعـة اسما آخر هو « قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر » .

والكتاب موسوعة طريفة لأخلاق الأمم وعاداتها وتقاليدها ، لا يمله القارىء لكثرة ما حوى من غـريب الطباع وتفـاوت السلوك وتباين العادات والتقاليـد ، تجد رفاعة وقد نصب نفسه فيه رقيبا على المؤلف وكأنما أمانة النقل لا تعنيـه بقدر ما تعنيه فائدة قرائه وخير مواطنيه ، فيحذف ما لا نفع فيه ، أو ماري فيه تجريحاً لأمته ودينه ، أو يضيف من تعليقاته مايصحح فكرة أو يأتى بفائدة كرأيه فى حقوق النساء وما يجب لهن من احترام ، أو يعلق على واقعة أو رواية تاريخية أو أدبية .

ولا نرى أكثر ما ترجم بعد ذلك الا للمدارس أو ما تكلفه به الحكومة من أعمالها كترجمة القانون المدنى الفرنسى وقانون التجارة فى عصر اسماعيـل ، وقد انفرد منهما بترجمـة قانون التجارة وقام بالقانون المدنى قلم الترجمة تحت اشرافه ، كما أشرف على أكثر ما ترجم من كتب فى ذلك العصر .

---

(1) Depping : Meours et Usages des Nations.

وكان شأنه فى التأليف شأنه فى الترجمة ، فقد ألف للمدارس كتبا مدرسية مطلوبة كما ألف للناس كتبا عامة ، الا أن طابع الاحتراف غلب عليه فى الترجمة فهو يترجم ويشرف على ما ترجمه غيره مما تتطلبه المناهج المدرسية أو تكلفه به الدولة ، ولا يترجم بعد ذلك الا ما يستهويه ويرى فيه تجديدا للفكر العربى ، أما التأليف فكان هوايته الأصيلة ، رأى فيه منفذا لأفكاره ومعارفه فأقبل عليه منذ البداية ، الا أن الترجمة تشغل معظم سنواته الأولى حين كانت المدارس فى حاجة الى الكتب الدراسية المعربة وحين ألقيت أعباء الترجمة عليه وحده فى عهد محمد على ، فلما حمل هذا العبء عنه تلاميذه وقلت أعباؤه الوظيفية فى عصر اسماعيل أقبل على هوايته الأولى من التأليف ، فكتب أحسن مؤلفاته وأكثرها نضجا ، ومنها ما كتبه لسد حاجة المدارس من الكتب المقررة ، ومنها ما كتبه — كما يقول — بقصد « أن يعين الجمعية بقدر الاستطاعة ، ويبذل ما عنده من رأس مال البضاعة ، لمنفعة وطنه العمومية ، وينصح لبلاده ببث ما فى وسعهم من المعلومية »[1] وان لم تخل بعض كتبه المدرسية من تلك الحوافز التى كانت تحمل المعلم دائما على تعليم الناس وتزويدهم بالمعرفة الصحيحة والفكرة السديدة والرأى الصائب .

وظفر التاريخ بجل اهتمامه فى التأليف كما ظفرت

---

(١) مناهج الألباب ص ٤

الجغرافية بجل اهتمامه فى الترجمة ، وفى التاريخ كانت أهم كتبه وأجدرها بالبقاء . واليه يرجع الفضـــل فى الاعتراف بالتاريخ كمادة من مواد الدراسة ، فى مدرسة الألسن أولا ثم فى المدارس التجهيزية بعد ذلك [1] ، والعناية بتزويد المكتبة العربية بالكتب التاريخية المترجمة فعهد الى تلاميذه فى مدرسة الألسن بترجمة كتاب فى تاريخ القدماء أضاف اليه ما ينقصـــه من « تاريخ الخليقة والعرب » بفصول من كتاب « عماد الدين أبى الفدا سلطان حماه » ودعاه « بداية القدماء وهـــداية الحكماء » ثم تخير كتابا آخر فى تاريخ العصور الوســطى ، كلف بترجمته « مصطفى الزرابى » أحد تلاميـــذه ودعاه : « قرة النفوس والعيون بسير ماتوسط من القرون» وغير ذلك من الكتب التى تخيرها للترجمة وأهمها كتابان فى تاريخ فرنسا وآخر فى تاريخ « بطرس الأكبر ، وثالث فى تاريخ مملكة السويد حتى عهد « كارلوس الثانى عشر » .

فلما اتجه الى التأليف التاريخى سار على نهجه فى العمل على ايقاظ المصريين يبعث أمجادهم القديمة وتعريفهم بتاريخهم العظيم ، وكان التنقيب فى آثار مصر والوصول الى مدلولات الكتابة الهيروغليفية قد كشفا عن صفحة باهـــرة من تاريخها الطويل رادها الأجانب قبل أن يرودها المصريون وحملت رفاعة حين فكر فى كتابة تاريخ مصر أن يبدأ بتاريخ الفراعنة وكان

---

(١) الشيال : التاريخ والمؤرخون ص ٥٦

أول من أشـــاد به واعتـــد بتراثه [١] ، فكان دائم التنـــويه به وبأمجاده ، فان مصر ــ كما يقول ــ أم الحضارات « لم تسبقها أمة فى ميدان التمدنية ولا فى حومة تقنين القـــوانين وتشريع أحكام الأحكام المدنية ، ولم تجحد نعمة اقتباس علومها أمة ولا ملة ، ولا أنكرت الاستضاءة بنور نبراسها مملكة عظيمة ولا دولة » [٢] .

فرفاعة ــ كما يقول الشيال « أول مؤرخ مصرى عرف تاريخ مصر القديم على حقيقته فى ضوء ماوصلت اليه الكشوف الأثرية وما كتبه المؤرخون الأوربيـــون فى عصره ، وهو أول مؤرخ مصرى آمن بأمجاد هـــذا التاريخ المصرى الفـــرعونى القديم ، ولم يلعنه ولم ينقص من قدره » [٣] ، « وانه ليقف أمام هذا مبهوراً فى فخر يملأه الاعتزاز بأمجاد هذا الوطن فمصر » فى أيام الفراعنة أم أمم الدنيا ، وكانت شوكة سلاحهـــا قوية ، وهيبتها فى القلوب متمكنة علية ، وفى أيام الاسكندر ومن بعده البطالسة ، وأزمان دولة الرومانيين القاهرة العابسة ، كانت مصر أيضا رحيبة الدولة مهيبة الصولة ، كما انتعش فى سجايا قلوب الأمم عن فخارها ، وارتسم فى مرايا الملل من رفعة منارها ، فكانت اهابتها بالقوة المعنوية بقدر اهابتها أيام الفراعنة بالقوة الحسية ، أو ليس أن حكماء الاسكندرية وعلماءها وفلاسفتها

---

(١) المصدر السابق ص ٧١
(٢) أنوار توفيق الجليل : ص ٥
(٣) الشيال : التاريخ والمؤرخون ص ٧٤

اشتهروا بالعلوم الفعلية لا سيما علم الأخلاق والعوائد ، وكثرت آراؤهم ومذاهبهم ، وأخذ عنهم الصادر والوارد ، والمتردد والوافد عموم المنافع والفوائد ، فتشعبت منها العلوم فى سائر معالم البلاد ، فتغيرت أحوال البــلاد تغايير حثيثة ونشأ عنها صورة حوادث الأزمان الحديثة ، وكذلك فى القرون الوسطى المعلومة التى افتتاحها فتوح الاسلام لمصر فى حالة مفهومة ، تجدد فى مصر ما لا مزيد عليه من التقدمات والأهمية مما لا يكاد يوجد فى غيرها من البلاد الاسلامية وغير الاسلامية ، اذ كانت قطب رحى ديار الاسلام ومركز دائرة شريعة خير الأنام ، فقد انتصر سلاطينها على ملوك الأفــرنج ، وغلبوا الجم الغفير ، وهزموا الجند الكثير ، وظهروا عليهم فى جهاد أهل الصليب ، وخلصوا بلاد القدس وغيرها من أيديهم بتوطين النفس فى الحرب على الشدة والتصليب ، ولما ظهر ملك فرنســا بجهة دمياط والمنصورة ظهر عليه جند مصر فرجعت جيوشه مهزومة مقهورة ، وفادى بنفائس الأموال نفسه ، وعاد الى بلاده ... ومن سوابق هذه المخالطات الشرفية ، وعلائق التقــدمات الأندلسية انتشر التمدن من المشرق الى المغرب ، وأعظم الفضل لديار مصر فى انتشار هذا التمدن المرقص المطرب » [1] .

واستوعبت هذه الفترة من تاريخ مصر حتى الفتح العربى الجزء الأول من كتابه « أنوار توفيق الجليــل فى أخبار مصر

(١) أنوار توفيق الجليل : ص ٩ — ١٠

وتوثيق اسماعيـــل » ، وختمه بفصل عن حياة العـــرب قبل الاسلام .

ورأى رفاعة قبل أن يمضى فى تاريخ مصر الاســـلامية أن يؤرخ لصاحب الدعوة الاسلامية عليه الصلاة والسلام فكتب « نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز » تناول فيها سيرة النبى الكريم منذ ولد حتى انتقل الى الرفيق الأعلى بعد أن أكمل للمسلمين دينهم وتمت لهم نعمة الاسلام ، وختمه بفصل عن الحكومة الاسلامية فى حياة الرسول مدللا على أن نواة الدولة الاسلامية بنظمها السياسية والمالية والاجتماعية قد وضعت فى حياته .

ويقال انه مضى فى كتابة تاريخ مصر الاسلامية حتى خلافة المطيع وقام ابنه « على باشـــا فهمى » باكماله من بعده على منهجه وأسلوبه [1] ، ولا يجد الشيال مايستدل به على وجود هذا الجزء أو ما يثبت أن ولده قد استكمله من بعده [2] ، ولا يتسنى له أن يتم ما انتواه من كتابة تاريخ مصر المطول غير هـــذين الجزءين . وكانا الى عهده وما بعد عهده بسنوات أحسن ما كتب فى هذا الموضـــوع ، فقد انقطع المؤرخون عن كتابة السيرة النبوية ــ على كثرة ما كتب فيها من قبل ــ نيفا وأربعة قرون . وكان كتاب « امتاع الاستماع بما للرسول من خولة وحفدة ومتاع » للمؤرخ المصرى تقى الدين المقريزى فى منتصف القرن

(١) بدوى : رفاعة ص ١١٦ ، وحلية الزمن : ص ٦٣
(٢) الشيال : التاريخ والمؤرخون : ص ٨٣ ، وحلية الزمن : هامش ص ٦٣

الخامس عشر الميلادى آخر ما كتب فيها ، ثم جاء رفاعة فكتب هذه السيرة الجديدة ، ولم يلج مؤرخ بعده ميدانها حتى كتب هيكل « حياة محمـــد » عام ١٩٣٥ [١] فكانت فتحاً جديداً فى التأريخ للسيرة وفى كتابة التاريخ الاســـلامى على نمط علمى حديث .

ولا يأتى رفاعة فى كتابة السيرة بجديد ، فنراه يسير على نهج من ســـبقه من المؤرخين مؤيدا من حيث المنطق الجدلى ما سبق أن جاءوا به دون أن يلجأ الى التحليل والاســـتقراء العلمى الذى افتتح به « هيكل » نمطا جديدا فى كتابة حياة الرسول الكريم . وان كنا لا نغمطه حقـــه فى التأريخ لنشأة الحكومة الاسلامية على عهد النبى حين رأى فى أعماله (عليه الصلاة والسلام) نواة للنظام الاسلامى فى نموه وتطوره من بعد .

أما « أنوار توفيق الجليل » فقد نحا فيه نحواً عد جديدا فى عصره ، فالى ذلك الوقت كان تاريخ مصر القديم مليئا بالأوهام والأباطيل فضلا عن اغفاله اغفالا يكاد يكون تاما من المؤرخين العرب الا ما تواتر اليهم من كتابات اليونانيين ، فلما بدأ التنقيب فى آثار مصر القديمة ، وأخذ علماء الغرب يبحثون فى تاريخها ويكتبون عنه ، استنار رفاعة بما أضافوه الى هذا التاريخ من صفحات كانت مجهولة ، فجاء كتابه أوفى ما كتب بالعربية وأقربه

---

(١) المصدر السابق : ص ٨٠

الى الصدق حينذاك ، وان غدا بعدما كشف من آثارها وأسفرت عنه البحوث من تاريخها لا يصور حقيقة هذا التاريخ ، ولكن يكفى رفاعة أنه كان أول من نوه بجلال هذا التاريخ ولفت الأنظار اليه .

وتحفزه الرغبة الى نفع مواطنيه وتقدم بلاده فيبذل من فكره ما يهديهم الى الرشد من أمرهم ، وتبين طريقهم بعد أن سارت البلاد فى طريق العمران ، ودبت اليها اليقظة التى تبشر بالخير ، ويكتب لهم « مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية» صنف فيه ــ كما يقول ــ « نخبة جليلة ... فى المنافع العمومية التى بها للوطن توسيع دائرة التمدنية ، اقتطفتها من ثمار الكتب العربية اليانعة ، واجتنيتها من مؤلفات الفرنساوية النافعة ، مع ما سنح بالبال ، وأقبل على الخاطر أحسن اقبال ، وعززتها بالآيات البينـــات والأحاديث الصحيحة ، والدلائل البينات ، وضمنتها الجم الغفير من أمثـــال الحكماء ، وآداب البلغـــاء ، وكلام الشعـــراء ، من كل ما ترتاح اليه الأفهام ، وتتراوح به عن الذهن الأوهام » [1] .

ويرد رفاعة التمدن الى أصلين : معنوى ومادى ، فالمعنوى مايتصل «بتهذيب الأخلاق بالآداب الدينية والفضائل الانسانية» [2] والمادى ما يتصل « بالمنافع العمومية التى تعود بالثروة والغنى . وتحسين الحال على الهيئة الاجتماعيـــة » [3] ، ويمضى فى عرض

(١) مناهج الألباب : ص ٥
(٢) المصدر السابق : ص ٧
(٣) المصدر السابق : ص ٨

أسباب التمدن فيقول : ان «الرغبة فى تمدين الوطن لا تنشأ الا عن حبه » وقد بلغت مصر من « التمدن الحقيقى والمعنوى » ما يرده الى « الحمية الوطنية فى أبناء مصر » ، ويعرف المنفعة بأنها : « ما يفعل لمصلحة تخص بلدة أو مملكة لراحة أهلها ، وتنظيم أحـــوالهم من كل ما يعود عليهم بفـــائدة لها وقع فى المملكة ، وبها يترقى الوطن ، ويشترك فى ثمرتها أربابه» [1] ويرد الثروة أو « اكتساب المال » الى مصادر ثلاثة هى : الزراعة والصناعة والتجارة ، فاذا تحققت هذه المنافع ، وساد العدل والانصـــاف ، تمت الثروة وعم الرخاء ووفى الناس بحقـــوق « المملكة القائمة بحفظهم وصياتتهم » ولا يتأتى ذلك ما لم يكن « العمل والكد ومزاولة الخدمة » دأب الناس ، « فلو زرعنا أرضا خصبة وميزنا ما يمكن أن ينسب من ايرادها للعمل ، وما ينسب للخصوبة منه ، وفرزنا كلا على حدته ، وجدنا محصول العمل أقوى من محصول الخصـــوبة ، ودليل ذلك : أن الأمة المتقدمة فى ممارسة الأعمال والحركات الكدية ، ذات الكمالات العملية المستكملة للأدوات الكاملة ، والآلات الفاضلة ، والحركة الدائمة ، قد ارتقت الى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات أعمالها ، بخلاف غيرها من الأمم ذات الأراضى الخصبة الواسعة الفاترة الحركة ، فان أهاليهـــا لم يخرجوا من دائرة الفـــاقة والاحتياج ، فاذا قابلت بين أغلب أقاليم أوربا وافريقية ، ظهر

---

(١) المصدر السابق : ص ٢٠

تلك حقيقة ذلك ، فمن هذا يظهر أن أســـاس الغنى مبنى على كثرة الأشغال والأعمال ، فهى مصادر وموارد للأموال ومنابع لأسعد الاقبال » [1] .

ويخوض رفاعة فى مسائل عدة قد تبدو بعيدة عما اختطه للكتاب ، الا أنها تسير فى اطار الفكرة العامة التى قررها للتقدم والعمران ، وان أفاض فى بعضها فعلى نهجه الأصيل من التوسع والاستطراد وضرب الأمثال والحكم نظما ونثرا ، والاستشهاد بوقائع التاريخ ، مما يراه كفيلا بجلاء فكرته وبيان غرضه ؛ فضلا عن تزويد القارىء بألوان المعـــرفة التى تنمى ثقافته ، وتحيطه علما بشئون حياته كحديثه عن العمد والمشايخ ، وعما بأرض مصر من الطمى ، وعما يجب من « التسوية بين أبناء الوطن من غير نظر الى اختلاف فى الدين » ، فاذا عرض لواقعة من وقائع التاريخ المصرى فى بعض تلك الأحاديث نراه يسهب ويفيض ، وينتقل فى سهولة ويسر بين الماضى والحاضر فهذا مطلب فى « سياسة مصر فى القديم » وذاك فيما « يدبره المرحوم محمد على من أصول المنافع العمومية » ولا يقف عند تاريخ مصر وحده ؛ بل يعدوه الى التاريخ الأوربى فيعبر على مناقب الملوك والوزراء وأعمالهم ومن عاصرهم من سلاطين آل عثمان ، ويذكر من كان منهم على زمن (لويز الرابع عشر) عندما يكتب عنه ، ويقتنص أحيانا من وقائع التاريخ ما يرفع من ذكر بلد كقوله

---

(١) المصدر السابق : ص ٨٨

فى « كون مقـــدونيا موطن أميرين جليلين اسكندر ومحمـــد على » .

ويمضى مباهج الألباب على هذا النمط موســـوعة لشتى الآراء والمعارف فى قالب من السرد التاريخى اللطيف ، ويختمه بحض طبقات الأمة على العمل والقيام « بمـــا يجب عليهم من الحقوق لوطنهم» . ويرى أن الأمة تتكون من طبقات أربع هى: طبقة ولاة الأمور . وطبقة العلماء والقضاة وأمناء الدين ، وطبقة الغزاة ، وطبقة أهل الزراعة والتجارة والصناعة ، ويذكر لكل طبقة حقوقها وواجباتها وصفاتها ، ويقرر أنهم جميعا متحدون « فى وصف الأهلية » التى تحملهم ــ أيا كانت طبقتهم ــ على خدمة بلادهم والتعاون « على ما فيه صلاح مملكتهم وجمعيتهم السياسية » .

ومن كتبه المدرسية « المرشد الأمين للبنات والبنين » كتبه حين طلب ديوان المدارس اليه أن يؤلف « كتـــابا فى الآداب والتربية ، يصلح لتعليم البنين والبنات على السوية » الا أن لهذا الكتاب من الأهمية فى دراسة فكره ما يحملنا على ايثاره على غيره من كتبه المدرسية العديدة بالبحث والتمحيص ، فقد عرض فيه لتعليم المرأة وما لها من حقوق اجتماعية وللعلاقة بين الجنسين ، فيقول فى تعليم البنات : « ينبغى صرف الهمة فى تعليم البنات والصبيان معا ... فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ، فان هذا مما يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ، ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى ،

فيعظمــن فى قلوبهم ، ويعظم مقامهن ، وليمكن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال والأعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، فكل ما يطيقه النســاء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة ، فان فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الأفاعيل ، فالعمل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربها من الفضيلة ، واذا كانت البطالة مذمومة فى حق الرجال فهى مذمة عظيمة فى حق النساء ، فان المرأة التى لا عمل لها تقضى الزمن خائضة فى حديث جيرانها ، وفيما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون ، وفيما عندهم وعندها وهكذا ، وأما القول بأنه لا ينبغى تعليم النساء الكتابة ، وانها مكروهة فى حقهن ، ارتكانا على النهى عن بعض ذلك فى بعض الآثار ، فينبغى ألا يكون ذلك على عمومه ، ولا نظر الى قول من علل ذلك بأن طبعهن المكر والدهاء والمداهنة ، ولا يعتمد على رأيهن لعدم كمال عقولهن ، فتعليم القراءة والكتابة ربما حملهن على الوسائل الغير المرضية ككتابة رسالة الى زيد ورقعة الى عمرو وبيت شعر الى خالد ونحو ذلك . وان الله تعالى لو شاء أن يخلقهن كالرجال فى جودة العقل وصواب الرأى وحب الفضائل لفعل ، فكأن الله تعالى خلقهن لحفظ متاع البيت ووعاء لصون مادة النسل ، فمثل هذه الأقوال لا تفيد أن جميع النساء على هذه الصفات الذميمة ، ولا تنطبق على جميع النساء ، وكم من نهى وردت به الآثار كحب الدنيا ومقاربة السلاطين والملوك ،

والتحـــذير عن الغنى ، فقد حمـــل على ما يعقبه شر وضرر محقق . وتعليم البنت لا يتحقــق ضرره فكيف ذلك وقد كان من أزواجه (صلى الله عليه وسلم) من يكتب ويقرأ ، كحفصة بنت عمر ، وعائشة بنت أبى بكر (رضى الله عنهم) وغيرهما من نساء كل زمن من الأزمان ، ولم يعهد أن عدداً كثيراً من النساء ابتذلن ، بسبب آدابهن ومعارفهن ، على أن كثيرا من الرجال أضلهم التوغل فى المعارف ، وترتب على علومهم ما لا يحصى من شبه الخروج والاعتزال »[1] .

ويستطرد فيرد السبب « فى حرمان البنات من الكتابة » الى الغيرة الجاهلية ويقول ان تعليـــم البنـــات يحملهن على « الأخلاق الحميدة » ويؤثر « كثيراً فى أخلاق أولادهن » ، ويستشهد بالحديث « على أن تعلم النساء الكتابة جائز وأن اشتراكهن مع الرجال لا بأس به ، حيث اشتركن معهم فى أصل الطبائع والغرائز » .

وتلك دعوة الى تحرير المرأة من وقر الجهل وخبث الغيرة الجاهلية والى مشاركة الرجل فى العمل بقدر ما تطيق ، حملها رفاعة قبل أن ينادى بها « قاسم أمين » بنيف وثلاثين عاما ، بل بأبعد من ذلك حين كان رفاعة فى باريس ورأى مشاركة المرأة للرجل فنوه بها واستحسنها .

---

(١) المرشد الأمين : عنوان « فى تشريك البنات مع الصـــبيان فى التعلم والتعليم وكسب العرفان » ص ٦٦

ويحمل الكتاب آراء جديدة — على المصريين حينذاك — في الآداب والسلوك والتربية ، وما يجب على المواطن لوطنه ، وما للمواطن من حق الحرية والمساواة مع غيره من « أهالي الجمعية » . ويقصد بالجمعيــة المجتمع القومي الذي يربط المواطنين بعضهم الى بعض ، فالحرية « هي رخصة العمل المباح ، من دون مانع غير مباح ، ولا معارض محظور ، فحقوق جميع أهالي المملكة المتمدنة ترجع الى الحــرية ، فتتصــف المملكة بالنسبة للهيئة الاجتماعية بأنها مملكة متحصلة على حريتها ، ويتصف كل فرد من أفراد هذه الهيئة بأنه حر يباح له أن ينتقل من دار الى دار ، ومن جهة الى جهة بدون مضايقة مضايق ، ولا اكراه مكره ، وأن يتصرف كما يشاء في نفسه ووقته وشغله فلا يمنعه من ذلك الا المانع المحدود بالشرع أو السياسة ، مما تستدعيه أصول مملكته العادلة ، ومن حقوق الحرية الأهلية ألا يجبر الانسان على أن ينفى من بلده ، أو يعاقب فيهــا الا بحكم شرعي ، أو سياسي مطابق لأصول مملكته ، وألا يضيق عليه في التصرف في ماله كما يشاء ، ولا يحجر عليه الا بأحكام بلده وألا يكتم رأيه في شيء ، بشرط ألا يخل ما يقــوله او يكتبه بقوانين بلده » [1] .

ويقسم الحرية الى خمسة أقسام : « حرية طبيعية » كحق

---

(١) المصدر السابق : عنوان « في الحرية العمومية والتسوية بين اهالي الجمعية » ص ١٢٧ — ونلاحظ أن هذه الآراء قد نشرها جون ستيوارت مل في كتابه « عن الحرية » في نفس الوقت في انجلترا .

الانسان فى « الأكل والشرب والمشى » مما خلق معــه وطبع عليه ، « وحرية سلوكية » وهى ــ كما يقــول ــ « حسن السلوك ومكارم الأخلاق » و « حرية دينية » وهى : « حرية العقيدة والرأى والمــذهب بشرط ألا تخــرج عن الدين » و « حرية مدنية » وهى « حقوق العباد والأهالى الموجودين فى مدنية بعضهم الى بعض » و « الحرية السياسية أى الدولية » وهى « تأمين الدولة لكل أحد من أهاليها على أملاكه الشرعية المرعية ، واجراء حريته الطبيعية بدون أن تتعدى عليه فى شىء منها » .

ويقول ان الحرية « بهذه المعانى هى الوسيلة العظمى فى اسعاد أهالى الممالك ، فاذا كانت الحرية مبنية على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى فى راحة الأهالى واســعادهم فى بلادهم ، وكانت سببا فى حبهم لأوطانهم ، وبالجملة فحرية أهالى كل مملكة منحصرة فى كونهم لهم الحق فى أن يفعلوا المأذون شرعا ، وألا يكرهوا على فعل المحظور فى مملكتهم » .

ويرى ان الحرية قرينة المساواة فكلاهما « ملازم للعدل والاحسان » وهى « بين أهالى الجمعية صفة طبيعية فى الانسان تجعله فى جميع الحقــوق البلدية كاخوانه وهى جامعة للحرية المدنية والحرية الملكية ، وذلك لأن جميع الناس مشتركون فى ذواتهم وصفاتهم » .

ومهما اختلف الناس فى الصفات والمزايا فهم « جميعا فى مادة الحياة الدنيا على حد سواء ، ولهم حق واحد فى استعمال

المواد التى تصون حياتهم ، فهم مستوون فى ذلك ، لا رجحان لبعضهم على بعض فى ميزان المعيشة ... فالتسوية فى الحقوق ليست الا عبارة عن تمكن الانسان شرعا من فعل أو نيل أو منع جميع ما يمكن لسواه من اخوانه أن يفعله أو يناله أو يمنع منه شرعا ، فكل انسان يتصرف فى أملاكه وحقوقه تصرفا كتصرف الآخرين ، أياً ما كانت فى المملكة صفته شرفا أو ضعة فهو مساو للجميع فى تصرفاتهم» . ثم يقرن الحق بالواجب فيقول : « ان استواء الانسان فى حقوقه مع غيره ، يستلزم استواءه مع ذلك الغير فى الواجبات التى تجب للناس بعضهم على بعض لأن التسوية فى الحقوق ملازمة للتسوية فى الواجبات » [1] .

فالمرشد الأمين للبنات والبنين ، ليس كتابا للمطالعة فى المدارس ـ كما كان الغرض من تأليفه ـ ولكنه موسوعة للآداب والسلوك والحقوق والواجبات فى مجتمع متكامل تسوده الحرية والمساواة ، ويستوى فيه الناس من الجنسين فى الحق والواجب . وتتبدى فيه الى جانب «تخليص الابريز» و «مباهج الآداب » آثار فكره وتحرره من أوهام العصر المظلم الذى خيم على البلاد العربية زهاء ثلاثة قرون أو تزيد فكان رائد فكر وامام نهضة . وكان الصوت الرخيم فى يقظة المصريين ، صوت المعلم الهادى الى سواء السبيل .

---

(١) المصدر السابق : نفس الموضوع .

أمام نهضة

نشأ الطهطاوى فى أسرة أمدته بزاد من الثقافة لم يكن هناك ما يفضلها أو يعلو عليها ، فلما نزح الى الأزهر نمت حصيلته من المعرفة والعلم السائدين فى عصره ، واتيح له أن يلتقى بالشيخ حسن العطار فوجهه الى ألوان جديدة من المعرفة لم تكن مألوفة حينذاك ، ولم تكن مما يقبل عليها من وقفوا حياتهم على العلم من شيوخ الأزهر وطلابه .

وكان الى هذا قراء نهماً ذا ذاكرة قوية ، وقدرة على التأمل والاستقراء قل أن تفوته معهما النظرة العميقة أو يخذله المنطق القويم ، فاستطاع أن يدرك فى يسر ما تنطــوى عليه اتجاهات العطار من حق وخير ، وأن يتبين ما تردى فيه الأزهر من جمود ، وما حل بالناس من ركود الفكر وفتور الهمة ، وعرف فيه العطار اتجاها الى التجديد وميلا الى المعرفة التى لاتحدها علوم الأزهر وحلقات شيوخه ، ولعله رأى من اقباله على الشعر والأدب وحبه للفلسفة والمنطق والثقافة العربية القديمة التى انصرف عنها غيره من العلمــاء ـــ الا قلة لا تذكر ـــ ما قربه اليــه ، فأحاطه بالرعاية والتوجيه ، وعقد عليه بعض ما كان يأمل فرشحه للسفر الى باريس عل فراسته تصدق فيكون له شأن فيما يدعو اليه من تطور وتجديد .

ويرتحل الطهطاوى الى باريس وفى نفسه ما بنفس العطار من شوق الى العلم الحديث ، ويرى بعد ما بين بلاده وهذا البلد الغريب فى الحضارة والتمدن ، فيهب نفسه لتجديد وجه الحياة فى مصر وبعثها من سباتها الذى طال فخلفها على هذا الحال الذى أمضه وهو يرى ما بلغه الغرب من تقدم وارتقاء . ويدرك أن الاغتراف من علوم الغرب هو سبيل بلده الى اللحاق بهذا الغرب الناهض ، ولا يثمر العلم ما لم يقم على وعى الأمة وبعث تراثها الماضى وتجديده ، ثم الايمان بعلم الغرب وفنونه وصناعته ايمانا لا يقف دونه تعصب عنصرى أو ثقافى أو دينى ولا يعوقه شعور كاذب بالاستعلاء أو الكبرياء القومى ، ويستشهد فى هذا بالحديث الشريف : « الحكمة ضالة المؤمن يطلبها ولو فى أهل الشرك » ، و « اطلب العلم ولو فى الصين » ولا يفوته التعريف بأن أهل الصين وثنيون ، ولا يكتفى بالاستشهاد بالحديث وحده ، ويقتنص الحكمة من بطون التاريخ ، ويرى فى قول بطليموس الثانى : « خذوا الدر من البحر ، والمسك من الفأرة ، والذهب من الحجر ، والحكمة ممن قالها » ما يؤيد رأيه ويعزز دليله .

اذن فقد اهتدى الطهطاوى الى الأساس الذى يقوم عليه بعث مصر ونهضتها الحديثة ، وهو ما اهتدى اليه العطار دون أن يجد السبيل اليه الا فى احياء المهجور من أدب العرب وثقافتهم الباهرة ، يوم أن كانت الثقافة العربية هى الشعاع الزاهى الذى ينير سماء العصور الوسطى ، وفيما عرفه من

اتصاله بالفرنسيين على عهد الحملة الفرنسية على مصر ، ولم يتيسر له أن يرى صورة تلك الحضـــارة الفرنسية كما رآها الطهطاوى ، فاذا كان قد وضـــع البذرة بخروجه على جمود الأزهر واقباله على الدراســات الممنوعة كالفلســفة والأدب والتاريخ والجغــرافية وغيرها من العلوم الطبيعية ، ومناداته بتطوير الدراسة فى الأزهر وبعث تراث العرب المهجور ، فقد تعهد الطهطاوى تلك البذرة بالرى والسقيا فربت على يديه وأثمرت حركة التجديد التى استقام عليها الفكر المصرى من بعد وامتدت لتشمل كل جوانب الحياة فى مصر على يد الأفغانى ومحمد عبده وقاسم أمين ولطفى السيد وطلعت حرب ، فما من حركة من حركات هؤلاء المصلحين على اختلاف ما بينها من اتجاها الا وهى صـــدى ، أعمق ما يكون الصدى ، لجانب من الجوانب العديدة فى فكر الطهطاوى ودعوته للارتقاء والتمدن .

ولا ندعى أن الأفغانى قد تأثر بالطهطاوى ، ولكن حين جاء الأفغانى الى مصر ، وجد الطهطاوى قد هيأ له تربة الثورة الفكرية والسياسية التى دفع اليها المصريين ولفحت حرارتها بقاعا عديدة من عالم الاسلام ، فقد اجتمع اليه أولئك الذين تربوا فى مدرسة الطهطاوى الفكرية ، على بعد ما بين الرجلين فى الطريقة والأسلوب ، فقد نشأ الطهطاوى فى رحاب محمد على وتفيأ ظلال نعمته ، فاذا انساق فى تمجيده وحمد مآثره فله عذر الوفاء ، وان كنا لا نراه يندفع فى تمجيـــده الا بقدر ما تظل

نعمته البلاد فيحمد له جهده فى نشر العمران « فمن مبدأ توليته وهو يعالج فى مداواة دائها الذى لولاه كان عضالا »[1] .

ولا يفوته أن يتحدث عن الحكم والسياسة والعدالة والمساواة أمام القانون دون أن يتطرق الى حكم الوالى أو نقد سياسته ، وانما كان يبرز محاسن الشىء لمن يدرك ويقارن ، ويكتفى برسم الصورة دون أن يقرنها بغيرها من الصور الماثلة فى بلاده الا ما كان بعيداً منها عن السياسة والحكم ، ولم تحمله المقارنة أبداً الى الحط من شأن قومه أو تسفيه أعمالهم ، فما لهذا الغرب الذى يحتذيه من فضل فى التقدم الا أنه غذ الخطى بينما وقف العرب والمسلمون فى مكانهم لا يتحركون ، وحين جمدوا غاب عنهم تراثهم القديم وغامت فى أعينهم أمجادهم حتى فدت نسيا لا تحرك طموحا ولا تثير حمية ، بل لعل سبق العرب فى التقدم ــ مما يعترف به الغرب ــ يجعل لهم الفضل عليه .

وكان الطهطاوى يدرك تماما أن جهده وعمله متعلقان برضاء الوالى ، ويعرف أن دعوته للعمران والتقدم والنهضة لا يمكن أن تسير دون عائق ما لم يحذر الوالى ويترضاه حتى يضمن لدعوته حرية الحركة والانتشار ، فما كانت المدارس تفتح الا بأمره ، وما كانت الكتب تطبع وتنشر الا بارادته ، ولم يكن الرأى العام من القوة حينذاك ــ ولعله ان وجد ما كان يرضى عن هذه الأفكار الجديدة الواردة من الغرب ــ ما يحمله على أن يركن اليه .

---

(١) تخليص الابريز : الباب الأول من المقدمة .

فكياسة الطهطاوى فى ابلاغ دعوته — ان وصفناه بالكياسة — كانت وليدة البيئة التى وجد فيها والظروف التى عاشها ، وان كنا لا نعنى أن يتحول الرجل ثائرا اذا وجد فى البيئة أو الظروف التى واجهها الأفغانى ، فقد كان الأفغانى ثائرا بطبعه ، وكانت الكلمة وسيلته والدعوة غايته ، فضلا عن حوافز الثورة التى تدفعه الى العمل وتحمله على التحدى ، فأينما وجد فالثورة فى أعقابه ، وأينما كان فالحمية التى تلفح الناس فى كل مكان ، بينما كان الطهطاوى معلما يركن الى الكلمة فى الدرس والكلمة فى الكتاب ، يحكمه الدرس ، وتحكمه القدرة على نشر ما يكتب ، فاذا تهيأ له الدرس فقد أوفى على غايته واذا تهيأ له الوقت للتأليف وواتته القدرة على نشر ما يكتب فقد أبلغ رسالته وأداها خير الأداء ، أما الأفغانى فكان له فى كل منتدى مدرسة ، وحين سئل مرة عما يحمل من أسفار أشار الى صدره وقال : « صناديق الكتب هنا » [1] .

وكانت كلمته تنفذ الى الناس فيتهافتون عليه ويقصدون ندوته ، فاذا ضاق بمكان — وما كان يضيق أبداً بمكان ، الا أن يحمل عنه قسراً — فله فى غيره منتجع ودعوة ، وأينما يكون فدعوته فى الخافقين يتردد صداها فى كل بلاد الاسلام فتهز العروش ويخشاها السلاطين والملوك .

وقد جرب الأفغانى أن يبذر بذوراً فى فارس والآستانة فلم

---

(١) زعماء الاصلاح ص ١١٧

تنبت ، ثم جربها فى مصر فأنبتت [1] ، جاءها فى أواخر أيام الطهطاوى ، فوجد التربة التى سواها حفية بالبذور التى يبذرها ، فكان رواد الأفغانى ، هم أنجب أبناء مدرسة الطهطاوى الفكرية ، ولعل الأفغانى قد ألم بأعمال الطهطاوى وأفكاره ، وان كنا على يقين من أنه خرج بتلك المدرسة من الولاء للحاكم والسلطان الى الولاء للشعب ، وكان الرأى العام قد أخذ ينكر نعم ولى النعم وفضله على البلاد والعباد فقد شب الوليد واستوى على قدميه مستقلا بذاته ولم يعد فى قدرة الحاكم أن يعوق حركته أو يئد فكره أو يقف دون ارادته . ولم تعد دعوة المفكر رهينة برضائه أو رفده ، وتحول سند الفكر عنه الى الشعب ، وكان الأفغانى صاحب الفضل فى هذا التحول العظيم .

الا أن هذا التحول ما كان يمكن أن يتم ما لم يمهد له الطهطاوى ، فقد أثمرت جهوده حقا حين وجدت دعوة الأفغانى أكرم تربة لها فى مصر وحين أثمرت فيها ما لم تثمره فى غيرها .

وفى هذه التربة التى سواها الطهطاوى تفتحت البراعم الأولى فاستوت ثمارا ناضجة وغذت كل حركة من حركات النهوض والارتقاء ، فحركة التجديد الاسلامى وتطوير التعليم فى الأزهر ، وقد أثمرت على يد الشيخ محمد عبده ، وان امتدت الى الشيخ حسن العطار ، الا أن اتجاهات الطهطاوى — وان

---

(١) المصدر السابق ص ٦٢

لم يتصل بالأزهر بعد عودته من فرنسا — فان ما آلفه من كتب في الفقه والشريعة وما ألقاه من دروسهما بمدرسة الألسن كانت من الاستنارة والتطور بحيث نستطيع أن نعدها نواة لحركة التجديد التي تبناها الشيخ محمد عبده .

ففي رسالته « البدع المتقررة في الشيع المتبربرة » وقد نشرت تباعا في روضة المدارس ، يعرض للأوهام الفاسدة التي لا تكاد تخلو منها أمة من قديم الزمان « ومع تقدم التمدن بالعلوم والمعارف والارشاد الى الشريعة الغراء ، فلا تكاد تخلو البلاد الاسلامية الباقية على حالة الخشونة من بقايا أوهام وبدع قديمة أو مختلفة ، كقبيلة اسلامية تنسب الأولاد لأمهاتهم دون آبائهم » ويستطرد من هذا الى الابتداع والبدعة والحكم في تبعية الولد الى الأم ، ومضى يتحدث عن معنى السنة والبدعة وصلة الشرع بالعقل ، مما يعد في ذاته دليلا على التحرر من الجمود والاجتهاد في الحكم [1] .

وله بحث في الاجتهاد والتقليد دعاه « القول السديد في الاجتهاد والتقليد » عرف فيه المجتهد وأركان الاجتهاد وأدلته [2] ، ومراتب الاجتهاد ، فهناك مجتهد مطلق مستقل ، وهو من يجتهد بقواعد يؤصلها وأدلة يحررها ، وبراهين يقررها ، ويفرع عليها كالامام الشافعي مثلا ، ومجتهد مذهب [3] ، وهو من

(١) روضة المدارس عدد ١٣ ص ٤
(٢) القول السديد ص ٣
(٣) المصدر السابق ص ٧

يختار طريقة امامه فى الاستدلال ويفرع عليها ، بحسب ما يؤدى اليه اجتهاده كالمزنى من أصحاب الشافعى ، ومجتهد فتوى وهو القادر على الترجيح فى أقوال امامه كالرافعى والنووى .

ولم يصدر الطهطاوى حكما قاطعا فى بقاء الاجتهاد ، ولكن مما لا شك فيه أن التعرض لمثل هذا الموضوع مما مهد لحركة التجديد والاجتهاد الذى رادها الشيخ محمد عبده .

والطهطاوى هو الرائد الحقيقى لحركة تحرير المرأة التى وهبها نفسه قاسم أمين ، وقد لا نجد فى دعوته أكثر مما دعا اليه الطهطاوى ، غير أن ما واجهه قاسم أمين كان غير ما واجهه الطهطاوى ، فلم يكن الرأى العام القارىء أيام الطهطاوى قد تكون بعد ليتابع ما يكتبه وكان أكثر ما يكتبه للمدارس أو لقلة من القارئين ممن تضمهم دواوين الحكومة ، وكانت الدولة هى التى تشرف وتسيطر على وسائل النشر ، وحين بدأ الرأى العام القارىء يتكون فى عصر اسماعيل وقامت الصحف ودور النشر الأهلية ، لم يكن لدعوته من التفرد ما كان لدعوة قاسم أمين بل كانت جزءاً من دعوته الاصلاحية العامة فلم تلق من الانتباه ما لقيته دعوة قاسم أمين التى انفرد بها وتفردت به ، وحظيت من انتباه الرأى العام واهتمامه ما لم تحظ به دعوة الطهطاوى لتحرير المرأة من تقاليد الماضى العتيقة وان لم يرد فيما كتب عبارة حرية المرأة أو تحريرها .

ومهد الطهطاوى للحركة القومية والدستورية التى دعا اليها وفلسفها لطفى السيد فكثيراً ما تحدث عن الوطن والوطنية

وكثيراً ما نعى بأمجاده وحبه نثراً ونظمـا وكان أول من لفت الأنظار الى ما فى تاريخ مصر القـديم من عظمة وما بلغته من حضاره فى ماضيها التليد .

وقد اتخذت الحركة القومية على يد لطفى السيد اتجاها قوميا محدداً يحو نحو المصريه والاستقلال عن الدولة العثمانية لمـا احاط بمصر من ظروف سياسية كانت غير الظروف التى أحاطت بها على أيام الطهطاوى فكان اتجاهه القـومى مشوبا بالولاء للخلافة وللرابطة الاسلامية العامة .

وطرق لطفى الحركة الدستورية مباشرة فدعا الى مشاركة الأمة للخديو فى الحكم وبين للناس معنى الدستور والحكم النيابى ونظريه فصل السلطات ، بينما اكتفى الطهطاوى بتعريفهم بها وما أثمرته من تحقيق العدالة والمساواة فى المجتمع الفرنسى ولا يطالب بتطبيقها فى مصر أو فى الشرق الاسلامى الذى يحكم الملوك فيه على هدى الشريعة الغراء كما يشير الى أن هذه المسائل مما لم يرد فى كتاب الله ولا فى سنة نبيه .

الا أن التعريف بها قد مهد لحركة لطفى السيد فقامت دعوته على الاستنارة والترشيد الفعليين .

ومما يفوت علينـا أن نرد حـركة طلعت حرب للنهوض بالاقتصاد القومى وتمصيره الى أفكار الطهطاوى وتوجيهه ، الا أن من يقرأ « مناهج الألباب » يرى أن الرجل قد خاض كثيرا فى هذا الموضوع ولمسه من نواح عدة ، بل ان من الكتاب من يرى فيما تناوله اتجاهات سابقة على اتجاهات عصره ، ففى مقالته

« تقسيم محصول الأرض بين مالكها وزارعها » ما ينم — كما يرون — عن دعوته فى هذا الوقت المبكر للاصلاح الزراعى ، ولا نعتقد أن الرجل كان يقصد ذلك بمعناه الحديث ، أو أنه كان يرهص بالغيب ، ولكن كل ما عناه هو ما يقع من غبن المالك لزارع الأرض ، فيقول : « ان المقتطف لثمار هذه التحسينات الزراعية ، المجتنى لفوائد هذه الاصلاحات العلاجية ، الناتجة فى الغالب عن العمل واستعمال القوى الآلية ، والمحتكر لمحصولاتها الايرادية ، انما هم طائفة الملاك ، فهم من دون أهل الحرفة الزراعية متمتعون بأعظم مزية ، فأرباب الأراضى والمزارع هم المغتنمون لنتائجها العمومية ، والمتحصلون على فوائدها ، حتى لا يكاد يكون لغيرهم شىء من محصولاتها له وقع ، فلا يعطون للأهالى الا بقدر الخدمة والعمل ، وعلى مقدار ما تسمح به نفوسهم فى مقابلة المشقة ، يعنى أن الملاك فى العادة تتمتع بالمتحصل من العمل ، ولا تدفع نظير العمل الجسيم الا المقدار اليسير الذى لا يكافىء العمل ، فما يصل الى العمال فى نظير عملهم فى المزارع ، أو الى أصحاب الآلات فى نظير اصطناعهم لها ، هو شىء قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد الى الملاك ، فان المالك يستوفى لنفسه أكثر محصول الأرض »[1] .

وينم هذا المعنى عن اتجاه واضح نحو الاشتراكية ، فهل نقول ان الطهطاوى قد دعا الى الاشتراكية أو انه صاحب نظرية

---

(1) مناهج الالباب : مطلب فى تقسيم الأرض بين مالكها وزارعها .

فى الاشتراكية أو حتى بشر بها ، ولم تعد فى ذلك الوقت أن تكون جنينا ينمو فى الفكر الأوربى لم يسفر بعــد عن نظرية محددة شــائعة ؟ بل لعل رفاعة لم يسمع بتلك الكلمــة ، وكل ما يمكن أن نفسر به اتجاهات الطهطاوى أنها اتجاهات انسانية مما تجمع عليه الأديان والمذاهب الاجتماعية لتحقيق الخير والعدل والكرامة للانسان .

ولا ندعى أن الطهطاوى قد دعا الى تمصير الاقتصاد المصرى كما دعا طلعت حرب ، وكل ما نستطيع أن نقوله ، انه دعا الى الاهتمام بالانشاء والتعمير والعناية بالتجارة والزراعة والصناعة حتى يعم الرخاء الناس أجمعين ، وهو ما دعا اليه طلعت حرب فى بداية حياته على صفحات الجريدة التى كان يرأس تحريرها لطفى السيد ، حين أخذ يوجه المصريين الى العناية بالصناعة والتجارة والمشروعات الزراعية والاقبال عليها والاهتمام بها ، أما ما دعا اليه من تمصير الاقتصاد فكان متعلقا بظروف عصره وما انتهى اليه الاحتلال البريطانى من تغلغل رأس المــال الأجنبى والاستثمارات المالية الأجنبية وسيطرتها على الاقتصاد القومى . فلم يكن التغلغل الأجنبى قد استشرى فى حياة الطهطاوى كما استشرى فى حياة طلعت حرب فاختلفت دعوة الرجلين فى الشكل واتفقت فى الجوهر .

وكان الطهطاوى بهــذا رائد بعث وامام نهضــة استوت وامتدت على الزمن الى كافة جوانب الحياة والفكر فى مصر ، وكان دوره فيها ـــ كما قلنا ـــ دور المعلم ، الذى يعلم ويرشد ،

ويوجه ، فى حلقات الدرس ، وعلى صفحات الورق كتابا أو
صحيفة ، وفى كل منها كان أثره بارزا مثمراً ، حتى لنستطيع
الامبراطور شارلكان للمؤرخ الانجليزى « روبرتسون وليم »
ورسم خطوطها من قبل ، فقد احتل خريجوها مناصب الادارة
الهامة فى الحكومة وقاموا بتدريس اللغتين العربية والفرنسيا
فى المدارس الخاصة وكان للمتقدمين فى أول فريق من خريجيه
حظ التعيين فيها وفى مدرسة « المهندسخانة » .

ولما أنشىء قلم الترجمة فى أوائل سنه ١٢٥٨ هـ (١٨٤١ ،
تحت ادارة المدرسة ألحق به كل الخريجين [١] تحت اشراف
« رفاعة بك » ، وكان ديوان المدارس يتجه اليه فى كل م
يتصل بالقلم وموظفيه [٢] ، فاذا جاء آخر العام قامت لجنة امتحان
المدرسة بمراجعة أعماله حتى تستوثق من انجازها فى موعده
ومن دقة الترجمة التى كلف بها .

ونبغ من خريجيها من كان لهم أعظم الفضل فى نهضة
الترجمة ونقل العلوم الحديثة الى العربية وبعث التقدم العلمى
فى البلاد ، منهم « محمد مصطفى البياع » مترجم كتاب « مطالع
شموس السير فى وقائع كرلوس الثانى عشر » [٣] ، وخليفة
محمود ، وقد أصبح مدرسا بالمدرسة ورئيس فرع العلوم
الاجتماعية والأدبيات بقلم الترجمة ، وله مترجمات عديدة فى

(١) الشيال : رفاعة ص ٣٤
(٢) بدوى : رفاعة ص ٤٨
(٣) حلية الزمن وهامشه ص ٤٣

التاريخ كما ترجم « تنوير المشرق بعلم المنطق » و « اتحاف الملوك الألبا بتقدم الجمعيات فى بلاد أوربا » ومقدمة تاريخ الامبراطور شارلكان للمؤرخ الانجليزى « روبرتسون وليم » واختار له عنوان « اتحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شارلكان » . وصدر فى ثلاثة أجزاء طبعت عام ١٦٢٦ هـ [١] .

ومنهم أيضا عبد الله أبو السعود ناظر قلم الترجمة وأستاذ التاريخ العام بمدرسة دار العلوم وصاحب جريدة « وادى النيل » فى عصر اسماعيل ، وأول رواد الصحافة الأهلية ، فقد كانت الصحف الى ما قبل صدور وادى النيل صحفا حكومية ، ومن مترجماته « تاريخ الفلاسفة اليونانيين » و « تاريخ مصر القديمة » لمريت باشا [٢] . وغيرهم كالسيد صالح مجدى كاتب سيرة رفاعة وقد تخصص فى ترجمة كتب الرياضيات والفنون الحربية واشترك فى ترجمة القانون الفرنسى ويقول عنه على مبارك ، أن مؤلفاته وتراجمه بلغت خمسة وستين كتابا ورسالة « وكتب بيده من الكراريس ما لا يدخل تحت حصر » [٣] .

« وأحمد عبيد » رئيس قلم الترجمة بوزارة الحربية ومترجم « تاريخ بطرس الأكبر » [٤] وغير ذلك من كتب الرياضيات والفنون الحربية ، والشاعر الناثر رائد القصة الحديثة فى الأدب

---

(١) المصدر السابق : نفس الصفحة ؛ وعصر اسماعيل جـ ١ : ص ٢٧٩

(٢) حلية الزمن وهامشه ص ٤٤ ، وأعلام الصحافة العربية ص ١١٤ — ١١٨ ، وتاريخ الترجمة والحركة الثقافية ص ١٥٢ — ١٥٧ وعصر اسماعيل جـ ١ ص ٢٧١ ، وبدوى : رفاعه ص ٩٤

(٣) حلية الزمن : ص ٤٨ ؛ وبدوى : رفاعة ص ٩٦

(٤) حلية الزمن ص ٤٥ ، وعصر اسماعيل جـ ١ ص ٢٧٩

المصرى « محمـــد عثمان جلال » ، صاحب كتاب « العيـــون اليواقظ » وهو تعريب شعرى لقصص « لافونتين » ومواعظه ، ومنظومة «التحفة السنية فى لغتى العرب والفرنسوية » ومترجم « پول وفرجينى » ومعرب «ترتوف» لموليير ، ودعاها «النسيخ متلوف » بعد أن أجرى فيها قلمه بالتصرف والتحوير ، وقد مثلت مراراً على المسارح المصرية فى بواكير هذا القرن [1] .

ومن أنبغ من تتلمذ عليه فى مدرسة الألسن من الأطباء « سالم باشا سالم » مؤلف « وســـائل الابتهاج الى الطب الباطنى » وقد طبع فى أربعة مجلدات سنة ١٢٩٨ هـ و « ينابيع المحتاج فى الطب والعـــلاج » و « الينابيع الشفائية والماء المعدنية » [2] . ومن المشرعين « محمـــد قدرى باشا » مؤلف « مرشـــد الحيران الى معرفة أحوال الانســـان على مذهب الامام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، فى المعاملات المدنية الشرعيه » و « الأحكام الشرعية فى الأحـــوال الشخصية » و « قانون العدل والانصاف فى القضاء على مشكلات الأوقاف » الى غير ذلك من المعاجم والكتب فى اللغة العربية وأجروميتها ومفرداتها ، وفى الجغرافية والتاريخ منها كتابه « معلومات جغرافية مصحوبة ببعض نبذ تاريخية لأهم مدن مصر جمعت وترجمت بالعربية لفائدة الشبيبة المصرية » ، وقد سبق أن أشرنا الى قدرى باشا فى صدد الكلام عن قلم الترجمة فى عصراسماعيل ، وما قام به

(١) حلية الزمن وهامشه ص ٥٣ ، وعصر اسماعيل جـ ١ ص ٢٧٢
(٢) عصر اسماعيل جـ ١ ص ٢٩٠

مع الطهطاوى من ترجمة القانون الفرنسى وقلنا انه تولى وزارة الحقانية فى وزارة شريف الدستورية سنة ١٨٨١ [١] .

وقد قسم السيد صالح مجدى خريجى مدرسة الألسن الى ثلاث طبقات ، وذكر أسماء البارزين منهم فى كل طبقة ونوه بما لهم من فضل على النهضة المصرية وأثر فى تقدم البلاد .

وكان التعليم سبيل الطهطاوى الى الاحياء والتجديد وبعث النهضة ، فعاش طوال حياته معلما يعلم ويرشد ويوجه ، ويبدو أنه منذ عرف ما يمكن أن يقدمه لبلاده قد وطن نفسه على أن يكون معلما ، فلم يكن هناك سبيل للارتقاء غير تعليم الناس وتوجيههم الى الغاية من حياتهم ، وعلم تلاميذه كيف يعلمون ، فعرف التربية فى فصل من فصول مقدمة كتابه « المرشد الأمين للبنات والبنين » ، وما يجب أن يحتذيه المربى فى توجيه الطفل منذ نشأته الأولى وغرسه بالفضائل الخلقية والدينية ، فاذا شب عن الطوق غدا قادرا على تمثل معتقدات دينه وفضائل مجتمعه ، ويثنى فى هذا على التربية اليونانية وما كان نساء العرب يربين عليه أولادهن من الشجاعة والاقدام ، ويعرض للفروق بين الفتى والفتاة فى صراحة تفتقدها طرق التعليم ومناهجه فى نظامنا التعليمى الحاضر ، ففى حديثه عن « الزواج والتسرى » [٢] يخوض فى أخبار النساء ، وفى أذواق الرجال من النساء كتفضيل

---

(١) حلية الزمن وهامشه : ص ٥٢ ، وتراجم مصرية وعربية ص ١٠١ ، وعصر اسماعيل جـ ١ ص ٢٩٣

(٢) المرشد الأمين : الباب الخامس ص ١٣٤ – ١٦٩

السمراء على البيضاء أو البيضاء على السمراء ، أو السمينة على الضامرة ، أو الضامرة على السمينة ، ويستشهد على ما يراه — كعادته — بالمأثور من أقوال العرب وغيرهم ، فيروى عن « أبى الفرج فى كتاب النساء » قوله : « بنت عشر سنين تشمس وتلين ، وبنت عشرين تسر الناظرين ، وبنت ثلاثين لذة للمعانقين ؛ وبنت أربعين ذات رخاوة ولين ، وبنت خمسين ذات بنات وبنين ، وبنت ستين عجوز فى الغابرين » ، أما فى الرجال فيروى ماقال له بعضهم « قالت امرأة لأخرى : ماتقولين فى ابن العشرين؟ قالت : ريحانة تشمين . قالت فابن ثلاثين ؟ : قالت شديد متين . قالت فابن أربعين ؟ قالت : أبو بنات وبنين ، قالت : فابن خمسين ؟ قالت : يجوز فى الخاطبين ، قالت : فابن ستين ؟ قالت : صاحب سعال وأنين » ، ويخرج من هذا بالحكم على أن « بلوغ الستين من الرجال والنساء هو فيما دون ذلك من الأعمار » . ويستطرد الى أكثر من هذا فيتناول أعمار النساء وما يصدق عليهن من صفات فى كل عمر فيقول على لسان من قال : « ان منهن الكاعب وهى التى كعب ثدياها ، أى برزا وظهرا ، ومن طباعها الصدق فى كل ما تسأل عنه ، وقلة الكتمان لما علمته ، وقلة التستر ، والحياء والتساهل ، ومنهن الناهد أى التى نهد ثدياها واستدارا ، ولم يتكامل شبابها ، فتستتر بعض الاستتار ، وتظهر بعض محاسنها ، وتحب أن يتأمل ذلك منها ، ومنهن الممتلئة شبابا ، التى قد استكمل خلقها ، وعظم ثدياها ، فيحدث عندها دلال وأدب ، وتحلو ألفاظها ، ويعذب كلامها ، ويتخلق

تبها الميل لجنسها ، ومنهن العانس ، وهى المتوسطة الشباب التى تهيأ ثدياها للانكسار ، فتحمش مشيتها ومنطقهـا ، وتبدى محاسنها بخفر ودلال ولعب ، وأحب الأشـياء اليها مفـاكهة الرجال ، وهى فى هذه الحالة ، قوية الميل لما تقتضيه أنوثتها ، مستحكمة العشق ، ومنهن المتناهية الشباب ، ولا شىء أشهى اليها من الاتصال بالرجال ، ومنهن النصف ، وهى التى يأخذ ماء وجهها فى النقص ، ولحمها فى الاسترخاء ، وذلك بعد مجاوزة الأربعين وهى التى قيل فيها :

وان أتوك ، فقالوا : انها نصـف

فان أحسن نصـفيها الذى ذهبا

فتكون ملاطفة للرجال ، مدارية لهم ، شديدة الحرص عليهم ، وما فوق ذلك فالعجوز (أى المسنة) التى يجب على العاقل أن يرغب عن زواجها » .

هذا كله فى كتاب أعد للمطالعة فى مدارس البنات والبنين ، ولعله أراد أن يعلم الشـباب من الجنسين ما يقوم غرائزهم ، فلا تضل من قراءة ما يفسدها أو ينحرف بها الى الشـذوذ ومجافاة الفضيلة ، وكأنه يستهدى للتربية مذهبا واقعيا أقرب ما يكون الى برجماسية « جون ديوى » وقبل جون ديوى بعشرات السنين .

ونرى هذا الاتجاه الى الواقعية فى التربية ماثلا فى الحوافز التى تدفع الشباب الى الفضائل التى ينشدها ، فالمحبة الأخوية لا تستقيم ما لم تستند الى الود بين الآباء والأمهات ، والقدوة

دون النصيحة هى التى يتمثلها الأبناء عن آبائهم والتلاميذ عن معلميهم ، واذا وجد الأبناء الانصاف والعدل والمساواة بينهم وبين بعضهم من آبائهم ، شبوا على المحبة والود وكانوا لبعضهم البعض عونا على الغير وردفا عند نوازل الزمان . مما « يثبت قدم العائلة ويرسخ أساسها ، ويكون له صورة وجود قوى ... بخلاف ما اذا بغض الاخوة بعضهم بعضا ، ووقع بينهم التحاسد والمشاحنة ، وصار أمر كل منهم موكولا على حدته لقوة نفسه ، لا ناصر له ولا معين من اخوته ، فانه بهذه المثابة يصير عرضة لجميع مكاره العزلة والانفراد ، والضعف الشخصى المترتب على عدم الاتحاد » [1] .

وتقترن الواقعية والمثالية فى نظرته للتربية ، فبينما نراه يتلمس القدوة والواقع فى التوجيه والتقويم ، اذا به يتلمس الفضائل والمثل الدينية والاجتماعية للتوجيه والتقويم ، فالواقعية عنده تقوم على النظر المثالية لمجتمع خيّر متدين دؤوب عامل ، « فان توصيل الولد الى الرتبة المطلوبة والدرجة المرغوبة تتوقف على حسن التربية والنهذيب والتعليم والتأديب ، ولا يخفى أن الله سبحانه وتعالى شرف الانسان بضغتين صغيرتين وهما قلبه ولسانه ، وخصه بصفتين عظيمتين وهما همته واحسانه ، وما عدا ذلك من محض المال أو الجمال فانما هو حظ الأدنياء من النساء والرجال ، فلا يرتفع المرء حتى

---

(١) المصدر السابق : ص ٣٧٨

يرفعه أكبراه وأصغراه ، فالجنان قابل ، واللسان قائل ، والهمة خاملة ، والاحسان فضيلة عاملة . والجنـان عارف مستقر ، واللسان معترف مقر ، والهمة حركة منتشرة ، والاحسان بركة مبشرة ، فان الجنان ينشى ، واللسان يفشى ، وكلاهما يساعد الهمة والاحسان والعزم والاتقان ، ولذلك كان الولد بأصغريه ، ومعلوم أن الولد الصغير مستعد بأصغريه إلى استكمال أكبريه ، فيحتاج الى التربية التى هى صـلة المربى الذى يقبسه الولى لتأديب الصبى فيما يقصد منه »[1]

ويستطرد من هذه التجريدات الى الواقع العملى فيقول : أن على المربى أن يتبين ميول الطفل « وما هو مستعد له من الأعمال ومتهيىء له منها ، فيعلم أنه مخلوق له » ففى الحديث : « اعملوا فكل ميسر لما خلق له » فليس على المربى أن « يحمله على غيره . فانه ان حمله على غير ما هو مسـتعد له لم يفلح فيه عادة . فيفوته ما هو متهيىء له ، فاذا رآه حسن الفهم صحيح الادراك جيد الحفظ واعيا ، فهذا من علامة قبوله للعلوم والفنون وتهيئه لها ... وان رآه بخلاف ذلك من كل وجه ، علم أنه لم يخلق لذلك ، فان رأى عينه طامحة الى صنعة من الصنائع مستعدا لها قابلا عليها وهى صناعة مباحة نافعة لأهل وطنه فليمكنه منها ، وهذا كله بعد تعليمه المعارف الابتدائية التى يشترك فيها كل فرد من أفراد الجمعية التأنسية وهى القراءة والكتابة وما يحتاج

---

(١) مناهج الالباب : مطلب فى تربية الأولاد .

اليه فى دينه من العقائد وغيرها ، وأصول الحساب ونحو ذلك من السباحة والعوم والفروسية وأسبابها من ركوب الخيل والرمى واللعب بالرمح والسيف ، وأسباب ذلك من آلات الحرب ليتمرن على وسائل الدفع عن وطنه والمحاماة عنه ، فان هذه الأشياء من المنافع العمومية التى ينبغى تمرين الأطفال من زمن الشبوبية عليها ، هذا بالنسبة للذكور ، وأما بالنسبة للبنات ، فان ولى البنت يعلمها ما يليق بها من القراءة وأمور الدين وكل ما يليق بالنساء من خياطة وتطريز ، وان اقتضى حال البلاد تعليم النساء الكتابة وبعض مبادىء المعارف النافعة فى ادارة المنازل ، فلا بأس بتعليم الحساب وما أشبهه لهن ، ويشترك الصبيان والبنات فى تعليم الأخلاق والآداب وحسن السلوك »[1] .

ويستوحى الطهطاوى التربية الاسلامية آراءه ومنهاجه ، فكثيراً ما يستشهد بالحديث الشريف أو يحتذى أقوال المؤدبين العرب وفضائل السلوك الاسلامى ، فمن الحديث قوله عليه الصلاة والسلام : « أو ولد صالح يدعو له »[2] ـ وقوله أيضا : ـ « وبشر المشائين فى الظلم الى المساجد بالنور التام يوم القيامة»[3] ـ وعن أبى هريرة : ـ « لا تمشين أمام أبيك ولا تجلس قبله ولا تدعه باسمه ولا تستسب له ـ أى لا تعرضه للسب

---

(١) نفس المصدر ونفس المطلب .
(٢) نفس المصدر : مطلب وضوح العبارة وترك الرموز الخفية .
(٣) المرشد الأمين ص ٣٩٣

وتجره اليه بأن تسب آب غيرك فيسب أباك مجازاة لك » [١] ؛ وعن ابن عمر رضى الله عنه : « أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : ان والدى يأخذ مالى وأنا كاره ، فقال : أما علمت أنك ومالك لأبيك » ومن حق الأولاد أعظام الأصغر للأكبر . وحنو الأكبر على الأصغر ، قال صلى الله عليه وسلم : « حق كبير الأخوة على صغارهم كحق الوالد على ولده » [٢] .

وذكر فى كتاب الحسبة عن مؤدبى الأطفال أنه لا يجوز لهم تعليم الأطفال فى المساجد لنهى النبى صلى الله عليه وسلم عن ذلك وأمره بتنزيه المساجد عن الصبيان والمجانين لأنهم لا يتحرزون من تسويد حيطان المساجد [٣] .

وكان هذا دأبه فى السند والمصدر فيسوق الرأى أولا ثم يردفه بما يصدقه من حديث شريف أو رواية صحابى أو عالم من علماء الاسلام أو واقعة من وقائع التاريخ حتى يستوى الرأى على هدى ويقين .

ولا يترك سبيلا من السبل فيما يتطلع اليه من تعليم الناس حتى يطرقه ، فيلجأ أحيانا الى الرجز ــ وكان فيه ميل للشعر : يقرضه ويستشهد به ــ كأرجوزته فى تأديب الأطفال . يقول فيها : « وقد كنت نظمت فى كتاب تعريب الأمثال فى تأديب الأطفال منظومة لطيفة ، تحسن بعنوان التعريب نسجها فيحسن هنا بمناسبة المقام ادراجها » [٤] وكان هــذا بصدد حديثــه فى

(١ ، ٢) مناهج الألباب : مطلب فى بر الولد لوالده .
(٣) المصدر السابق : مطلب فى ترتيب تعليم الأطفال .
(٤) المصدر السابق : مطلب أطوار الصغير .

مناهج الألباب عن « تعليم الأطفال وأطوار الصغير » يتحدث فيها الى الأبناء بالنصح والوصية فيما يتحلون به من خلق وما ينسجون عليه من سلوك ، يبدأها بقوله :

الحمــــد لله وصـــــل ربى
على النبى وآله والصــحب
وبعـــد فالتــأديب للأبنـــاء
آكـــد واجب على الآباء
من أجـــل ذا نظمت للتنبيـــه
خمسا وأربعـــين بيتــا فيــه
فى نحو ســاعتين والمولى على
قصدى أعان جــل ربى وعلا
فى بــر والديك بالــغ تغنــم
لا سيما فى العيد أو فى الموسم
وان ترم سرور أم أو أب
يوما فكسب العلم خير مكسب

ومنها :

ان رمت أن تشـــوّق الأولادا
وأن ترى من نجلك اجتهـــادا
فعـــده بالاتحاف يوم العيـــد
وقدم الوعـــد على الوعيـــد

ويستعرض فيها ما يستحب للطفــل من حميد الصــفات

كالنظافة ، والطاعة ، وما يكره منه كالغضب والعناد أو يذم فيه كالتخفى وكتمان السر عن الآباء .

ومما تتحلى به البنات من العلم والاحتشام فضلا عن « الشغل والتطريز » .

فضل البنات الشغل والتطريز
ومن حوت علما به تفوز
فى سائر الأحوال الاحتشام
من جنسهن والحيا يرام

ويختمها بما يستوى مع منهجه من أدب الاسلام والتربية الاسلامية فيقول :

تستحسن الطباع وصف الأدب
وأحسن الآداب آداب النبى
وما سوى أخلاقه فباطل
ومن تحلى بسواها عاطل
ولا يليق من غلام الطاعة
خروج رأيه عن الجماعة
ففى اجتماع الكلمة السلامة
بها يتم الفتى مرامه
والحمد لله وصلى الله
على النبى وكل من والاه

وظل الطهطاوى طوال حياته يعلم ويوجه ـ كما قلنا ـ

لا يترك ميدانا من ميـادين النهضة الا خاض فيه ومحصه بالتوجيه والترشيد فكان بحق امام النهضة المصرية الحديثة .

وامتد به العمر ، حتى نيف على الخامسة بعد السبعين . يواجه اللين واليسر أحيانا ، والضيم والعسر أحيانا أخرى ، يمضى فى رحاب الدولة مقربا أو مبعدا وان لم يغضب أحدا ولم يغضب منه كبير أو صغير ، وعاصر أربعة من الولاة تعددت ميولهم ومشاربهم ، ولكنه ظل كما هو لا يتغير بتغير الزمن ولا يتلون بتلون الولاة ، فوقفت به مناصب الحكومة على قدر ولم يظفر بمنصب فيه جاه أو سلطان ولم يرتق الوزارة كما ارتقى اليها بعض معاصريه وتلاميذه ممن هم دونه فضلا على البلاد ، ولم ينل الباشوية على كثرة من نالها من خدم الأسرة الخديوية ومواليها ، ويبدو أن الرجل على ما كان من ولائه للأسرة الحاكمة ــ كما يبدو من حمده لهم وتنويهه بأفضالهم على البلاد ، لم يكن يخلص فى ولائه الا بقدر ما يعود منهم على البلاد من خير ، وما يتحقق على أيديهم من تقدم وعمران ، كما كان ــ على قدر ما ينهض بالعمل على أحسن ما يكون ، ويؤديه على أحسن ما يكون الأداء ــ أعجـز معـاصريه عن التقرب الى الحاكم واستهواء السلطان ، فلم يظفر بعطف الحاكم ومحبته قدر ما ظفر بحاجة الحاكم اليه والى علمه ، فظل بعيدا عما يظفر به القريب الى قلب الحاكم من أبهة الحكم وألقاب الحاكم ، وعاش العمر معلما ، وكان عمله فى تحرير « روضـة المدارس » آخر عمل تولاه .

ففى يوم الثلاثاء غرة ربيع الثانى سنة ١٢٩٠ (٢٧ مايو ١٨٧٣) انتقل الى رحمة الله بعد أن اشـتد عليه داء (النزلة الثانية) على ما يروى السيد صالح مجدى ، وكانت قد أصابته من قبل « فتخلص منها أول مرة ، ثم عاودته ثانى كرة فنجا منها لفسحة فى أجله ، ثم أدركته فى الدفعـة الثالثة فلازم الفراش ولم تنفك عنه حتى مات » .

وودعته مصر الوداع الحار الجدير برجل وهبها علمه وسعى حياته .

مراجع عربية

١ ـ مراجع عامة

١ ـ احمد أمين

ـ زعماء الاصلاح فى العصر الحديث

النهضة المصرية ١٩٤٨

٢ ـ أحمد أحمد بدوى : الدكتور

ـ رفاعة رافع الطهطاوى

البيان العربى : الطبعة الثانية ١٩٥٩

٣ ـ ابراهيم عبده : الدكتور

ـ تاريخ الوقائع المصرية الآداب : الطبعة الثالثة ١٩٤٦

ـ أعلام الصحافة العربية الآداب : الطبعة الثانية ١٩٤٥

ـ تطور الصحافة المصرية الآداب : الطبعة الثالثة ١٩٥١

٤ ـ أحمد عزت عبد الكريم : الدكتور

ـ تاريخ التعليم فى عصر محمد على النهضة المصرية ١٩٣٨

ـ تاريخ التعليم فى مصر :

عصر عباس وسعيد واسماعيل النصر ١٩٤٥

٥ ـ السيد صالح مجدى

حلية الزمن بمناقب خادم الوطن

: تحقيق الدكتور جمال الدين الشيال

وزارة الثقافة والارشاد ١٩٥٨

٦ ـ أمين سامي باشا

ـ التعليم فى مصر المعارف ١٩١٧

ـ تقويم النيل : ثلاثة اجزاء دار الكتب ١٩٣٦

٧ ـ جرجي زيدان

ـ بناة النهضة العربية كتاب الهلال عدد ٧٢

ـ تاريخ آداب اللغة العربية :

الجزء الرابع ، الطبعه الثانية دار الهلال ١٩٣٧

٨ ـ جمال الدين الشيال : الدكتور

ـ تاريخ الترجمة والحركة الثقافية فى عصر محمد على

ـ رفاعة رافع الطهطاوى :

دار المعارف سلسلة نوابغ الفكر العربى عدد ٢٤

ـ التاريخ والمؤرخون فى مصر فى القرن التاسع عشر

النهضة ١٩٥٨

٩ ـ حسين مؤنس : الدكتور

ـ الشرق الاسلامى فى العصر الحديث

المكتبة التجارية الطبعة الثانية ١٩٣٨

١٠ ـ خير الدين الزركلى

الأعلام الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٦

١١ ـ الجبرتى : عبد الرحمن الجبرتى

ـ عجائب الآثار فى التراجم والأخبار :

اربعة أجزاء القاهرة ١٣٢٢ هـ

١٢ ـ عبد الرحمن الرافعى

ـ عصر محمد على النهضة المصرية الطبعة الثانية ١٩٤٧

ـ عصر اسماعيل : جزءان النهضة المصرية ١٩٣٢

١٣ ـ عبد المتعال الصعيدى
تاريخ الاصلاح فى الأزهر   القاهرة   ١٩٥٨

١٤ ـ على باشا مبارك
ـ الخطط التوفيقية الجديدة   ٢٠ جزءا بولاق ١٣٠٥ هـ

١٥ ـ عمر طوسون (الأمير)
ـ البعثات العلمية فى عهد محمد على
ثم فى عهدى عباس الأول وسعيد الاسكندرية ١٩٣٤

١٦ ـ قاسم امين
ـ تحرير المرأة   المكتبة الشرقية   طبعة ثانية
ـ المرأة الجديدة   مطبعة الشعب   ١٩١١

١٧ ـ محمد حسين هيكل : الدكتور
ـ تراجم مصرية وغربية   مطبعة مصر

١٨ ـ محمد عبد الغنى حسن
ـ عبد الله فكرى   اعلام العرب عدد ٤٢
وزارة الثقافة والارشاد

١٩ ـ محمد فريد ابو حديد : بك
ـ زعيم مصر الأول : السيد عمر مكرم كتاب الهلال عدد ٧

٢٠ ـ محمد فؤاد شكرى : الدكتور
ـ بنـاء دولة   القاهرة   ١٩٤٨

٢ ـ كتب رفاعة رافع الطهطاوى

ـ تخليص الابريز فى تلخيص باريز
تحقيق وتعليق الدكتور مهدى علام والدكتور احمد احمد بدوى والدكتور أنور لوقا . طبع وزارة الثقافة والارشاد ـ مصر ١٩٥٨

- **انوار توفيق الجليل فى أخبار مصر وتوثيق بنى اسماعيل** بولاق ١٢٨٥ هـ
- **التعريبات الشافية لمريد الجغرافية** بولاق ١٢٥٤ هـ
- **الجغرافيا العمومية** الجزء الأول والثالث بولاق
- **قلائد المفاخر فى غريب عوائد الأوائل والأواخر** بولاق ١٢٤٩ هـ
- **القول السديد فى الاجتهاد والتقليد** مطبعة وادى النيل ١٢٨٧ هـ
- **المرشد الأمين للبنات والبنين** مطبعة المدارس الملكية ١٢٨٩ هـ
- **مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب العصرية** مطبعة الرغائب ١٣٣٠ هـ (١٩١٢)
- **مواقع الأفلاك فى وقائع تليماك** بيروت ١٨٦٧
- **نهاية الايجاز فى سيرة ساكن الحجاز** مطبعة المدارس الملكية ١٢٩١ هـ

٣ ـ صحف ودوريات

١ ـ **الوقائع المصرية** (١٢٥١ ـ ١٢٦٧ هـ)

٢ ـ **روضة المدارس** : السنة الأولى الى الرابعة (١٢٨٧ ـ ١٢٩٠)

٣ ـ **الجريدة** : السنة الأولى ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨

مراجع آفرنجية

1) Wilson, Sir Robert. T.
History of the British Expedition to Egypt.
(London 1803)

2) Wagborn, Thomas.
Egypt as it is in 1837.
(London 1837)

3) Ghorbal, Shafik.
The Beginnings of the Egyptian Question and the Rise of Mehemet Aly.
(London 1928)

4) Dodwell, Henry.
The Founder of Modern Egypt ; A Study of Mohammed Ali.
(Cambridge 1931)

5) Roy. I J. E.
Les Français en Egypt, ou Souvenirs des Campagnes d' Egypte et de la Syrie, Par un officier de L' expédition.
(Tours 1855)

6) Mengin, Felix.
Histoire de L' Egypte Sous le Gouvernement de Mohammed Ali.
(2 Vols : Paris 1823)

7) Mourriz, p.
Histoire de Mehemet Ali.
(3 Vols : Paris 1858)

فهرست

صفحة

دار مصر للطباعة
٣٧ شارع كامل صدقى



موعدك صباح السبت من كل أسبوع مع عدد جديد
من مجلة
الإذاعة والسينما
التليفزيون • المسرح • السياحة
أقوى المجلات
العربية المصورة
طباعة فاخرة
إخراج رائع
٧٢
صفحة
بالألوان
بـ ٥٠ مليما
رئيس التحرير :
رجاء العزبي

أعلام العرب

الكتاب القادم

زرياب

أبو الحسن علي بن نافع

موسيقار الأندلس

بقلم

الدكتور محمود أحمد الحفني

الناشر : مكتبة مصر
الثمن : ١٠ قرو